# الباب السابع عشر

## عقل اليهودى وقلبه

## ٥٠٠ — ١٣٠٠

# الفصل الأول

## الأدب

لقد ظلت روح اليهودى يتنازعها عاملان هما اعتزامه أن يشق طريقه فى عالم معاد له وشغفه بثمار العقل . فالتاجر اليهودى عالم فقده العلم ؛ يحسد الرجل الذى نجا من حمى الثراء ، والذى شغف فى هدوء واطمئنان بحب العلم وضرب بسهم فى آفاق الحكمة ، ولكنه لا يحسده فحسب بل يكرمه كذلك . وشاهد ذلك أن التجار ورجال المصارف الذاهبين إلى أسواق ترويس Troyes ، كانوا يقفون فى طريقهم ليستمعوا إلى راشى العظيم وهو يشرح التلمود[1] . وبفضل هذه الروح ظل يهود العصور الوسطى وهم فى غمار المشاغل التجارية ، والفقر المذل ، والازدراء القاتل ، ظلوا ينتجون النحويين ، وفقهاء الدين ، والمتصوفة ، والشعراء ، والعلماء ، والفلاسفة ، ولم يضارعهم فى آدابهم الواسعة وثرائهم العقلى إلا المسلمون فيما بين ١١٥٠ و ١٢٠٠[2] . وكان مما يسر لهم أسباب هذا النبوع أنهم يعيشون بين المسلمين أو على اتصال بهم ، وأن كثيرين منهم كانوا يعرفون اللغة العربية ، فكان عالم الثقافة الإسلامية الثرى بأجمعه فى العصور الوسطى مفتوحاً أمامهم يغترفون من بحره الطامى فى العلوم والطب ، والفلسفة ، وبفضل وساطتهم أثاروا

عقل العالم الغربي المسيحي بما بثوا فيه من تفكير المسلمين .

وكان اليهود في بلاد الإسلام يستخدمون اللغة العربية في حديثهم ونثرهم المكتوب ، أما شعراؤهم فقد استمسكوا في شعرهم باللغة العبرية ولكنهم استخدموا فيه الأوزان العربية والصور الشعرية ؛ وفي البلاد المسيحية كان اليهود يتحدثون بلغة الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها ، ويكتبون في آدابهم ، ويعبدون يهوه بلسانهم القديم . وأخذ يهود أسبانيا بعد ابن ميمون يكتبون أدبهم باللغة العبرية بدل العربية بعد فرارهم من اضطهاد الموحدين . وقد استطاع اليهود بفضل جهود فقهاء لغتهم وإخلاصهم أن يحيوا اللغة العبرية من جديد ؛ وكان قد تعذر عليهم فهم نصوص العهد القديم لعدم وجود الحركات المستقلة وعلامات الترقيم في اللغة العبرية ، ولكن علماءهم استطاعوا بعد دراسة دامت ثلاثة قرون أن يضعوا النص المسورتي Masoretic ( الذي قدسته التقاليد ) وذلك بإضافة علامات للحركات ، وإشارات للنبر ، وعلامات للترقيم ، وفواصل للشعر ، وشروح في الهوامش ؛ وبفضل هذا العمل أصبح في مقدور كل يهودي بعد ذلك الوقت أن يقرأ كتبه الدينية .

واضطرتهم هذه الدراسات إلى وضع النحو العبري والمعجمات العبرية . ولفت شعر مناشة بن سروق ( ٩١٠ — ٩٧٠ ) وعلمه نظر حسداي بن شبروط ، فاستدعاه الوزير العظيم إلى قرطبة وشجعه على وضع قاموس لألفاظ الكتاب المقدس العبرية . ووضع يهوذا بن داود حيوج ( حوالي عام ١٠٠٠ م ) النحو العبري على أساس علمي ، في ثلاثة كتب باللغة العربية في لغة الكتاب المقدس . وبزه في هذا العمل تلميذه يونا بن جناح ( ٩٩٥ — ١٠٥٠ ) السرقسطي حين وضع بالعربية كتابه في النقد الذي تقدم به النحو العبري والمعجمات العبرية خطوات واسعة . ووضع يهوذا بن فريش علم فقه اللغات السامية المقارن بدراسته للغات العبرية ، والآرامية ، والعربية ؛ وتقدم أبراهام الفاسي (حوالي عام ٩٨٠) اليهودي

القرائى خطوة أخرى على هذا العمل بوضعه معجما أرجع فيه جميع ألفاظ كتاب العهد القديم إلى أصولها ورتبها على الحروف الأبجدية . وبز ناثان بن يحيل من علماء رومة ( المتوفى عام ١١٦٠ ) سائر علماء المعاجم اليهود بوضعه معجما للتلمود . وفى نربونة ظل يوسف قمحى وولداه موسى وداود ( ١١٦٠ — ١٢٣٥ ) يعملون عدة أجيال فى هذه الميادين ؛ وظل مخلول أو موجز Michlol داود قروناً عدة المرجع المعترف به فى النحو العبرى ، وطالما أعان مترجمى الملك چيمس للكتاب المقدس[٣] . تلك كلها أسماء اخترناها من بين ألف اسم من أدباء اليهود .

وأفاد الشعر اليهودى من هذه الدراسات الواسعة فتحرر من الصيغ العربية ، وأنشأ أشكاله وموضوعاته الخاصة به ، وأنتج فى أسپانيا وحدها ثلاثة رجال يضارعون أى ثلاثة غيرهم من الأدباء المسلمين أو المسيحيين فى عصرهم . وأول هؤلاء الثلاثة هو سليمان بن جبيرول المعروف فى العالم المسيحى باسم الفيلسوف أفسبرون Avicebron . وقد هيأته مأساته الشخصية لأن يكون هو المعبر عن مشاعر إسرائيل . وكان مولد هذا « الشاعر بين الفلاسفة والفيلسوف بين الشعراء » على حد قول هينى فى مالقة حوالى عام ١٠٢١ . وتوفى أبواه وهو صغير السن فنشأ فى جو من الفقر نزع به إلى التفكير المكتئب . وأعجب بشعره يقويتايل ابن حسان وهو رجل كان يشغل منصباً رفيعاً فى دولة — مدينة سرقسطة الإسلامية . وفى هذه المدينة وجد ابن جبيرول الحماية والهناءة إلى حين ، وأخذ يتغنى بمباهج الحياة . ولكن بعض أعداء الأمير قتلوا يقويتايل فاضطر ابن جبيرول إلى الفرار من المدينة وظل عدة سنين يهيم على وجهه فى بلاد الأندلس الإسلامية ، فقيراً عليلا ، هزيلا إلى حد « يسهل معه على ذبابة أن تحملنى » . وأولاه صمويل بن نجدلا ، وهو شاعر مثله ، حمايته وأواه فى غرناطة وفيها كتب سليمان كتبه الفلسفية وخص الحكمة بشعره :

وكيف أتخلى عن الفلسفة ؟
لقد عقدت معها عهداً .
فهى أمى وأنا أعز أبنائها ؛
لقد طوقت عنقى بجواهرها . . . ؛
وستظل روحى تصبوا إلى
مراقيها السماوية ، ما دمت حيا . . .
ولن يقر لى قرار حتى أكشف منبعها(٥) ؛

وربما كان كبرياؤه قد أدى إلى الشقاق بينه وبين صمويل ؛ فعاد ، وهو لا يزال شاباً فى أخريات العقد الثالث من عمره ، إلى الفقر والتجوال ، حتى أذلت النكبات نفسه ، فهجر الفلسفة إلى الدين :

رباه ، ما الإنسان ؟ إنه جيفة دنسة تطؤها الأقدام .
إنه مخلوق كريه ، يفيض مكراً وخداعاً ،
إنه زهرة ذواية ، تذبل إذا مسها الحر(٦) .

وينجو شعره فى بعض الأحيان منحى عظمة المزامير المكتئبة الحزينة :

أنشر علينا السلام يا الله ،
وأسبغ علينا نعمتك السرمدية ؛
ولا تجعلنا ممن يحل عليهم غضبك ،
يا من نسكن إليه .
وسواء كنا نطوف بالأرض جيئة وذهاباً .
أو نقيم مكبلين بالأغلال فى المنفى الموحش .
فسنظل نجهر أينما ذهبنا قائلين .
هاهنا مجدك يا رباه(٧) .

وخير كتبه كلها هو كيتير ملخوت ( التاج الملكى ) الذى ينادى فيه بعظمة الله كما كانت قصائده الأول تنادى بعظمته هو :

أفر منك إليك لأجد
مكاناً ألجأ إليه ؛ وفى ظلك
أختبئ من غضبك
إلى أن تهدأ سورتك ،
وأتعلق بأسباب رحمتك
حتى تستمع إلىّ وترثى لى ،
ولن أفك قبضتى
حتى تهبط علىّ نعمتك[٨] .

وقد اجتمع فى أسرة ابن عزرا بغرناطة ما كان للثقافة اليهودية فى أسبانيا الإسلامية من ثراء متعدد المناحى ؛ وكان يعقوب ابن عزرا يشغل منصباً رفيعاً تحت رياسة شمويل بن نجدلا فى بلاط الملك ؛ وكان بيته ندوة للآداب والفلسفة ونبغ ثلاثة من أولاده الأربعة الذين نشأوا فى هذا الجو العلمى ؛ فكان إسحق شاعراً ، وعالماً طبيعياً ، ومتبحراً فى التلمود ؛ وكان موسى ابن عزرا ( ١٠٧٠ — ١١٣٩ ) عالماً وفيلسوفاً ، وكان أعظم شعراء اليهود قبل هلوى . وقد انتهت سعادة شبابه حين أحب بنت أخ له حسناء زوّجها أبوها إسحق أخوه الأكبر بأخيه الأصغر أبراهام . فما كان من موسى إلا أن هاجر من غرناطة ، وهام على وجهه فى بلاد نائية يغذى بالشعر عواطفه المكبوتة البائسة : « ألا فعيشى ، وإن كانت شفتاك يسيل منهما الشهد ليمتصه غيرى ، وتنفسى بالند يستنشقه سواى . وسأظل وفياً لك حتى تستعيد الأرض الباردة وديعتها ، وإن لم تكونى أنت وفية لى . إن قلبى ليطرب لغناء العندليب ، وإن كان المغنى يعلو علىّ وينأى عنى »[٩] . ووجّه قيثارته آخر الأمر ، كما وجهها ابن جبيرول ، إلى الأغانى الدينية ، وأخذ ينشد مزامير من الاستسلام الصوفى .

وكان أبراهام بن مابر بن عزرا — الذى يَعُدُّه براوننج Browning

المعبر عن فلسفة العصر الفكتورى — يمت بصلة القرابة البعيدة لموسى بن عزرا ، ولكنه كان من أصدقائه المقربين . وقد ولد فى طليطلة عام ١٠٩٣ ، وعرف فى شبابه الفقر والجوع ، ولكنه كان شديد التعطش إلى العلم فى كل ميادينه . وأخذ هو أيضاً يتنقل من مدينة إلى مدينة ، ومن مهنة إلى مهنة ، ولازمه سوء الحظ فى كل مهنة وكل مدينة ، وقال فى هذا بسخرية اليهودى المريرة : « لو اتجرت فى الشمع لما غربت الشمس ، ولو بعت أكفان الموتى لعاش الناس إلى أبد الدهر » . وسافر إلى إيران مجتازاً مصر والعراق ، ولعله قد ذهب أيضاً إلى الهند ، ثم عاد إلى إيطاليا ، ومنها إلى فرنسا ، وانجلترا . وبينا كان عائداً إلى أسپانيا فى الخامسة والسبعين من عمره إذ وافته منيّته ، وكان لا يزال فقيراً ولكنه ذو شهرة واسعة بين اليهود أجمعين لبلاغة شعره ونثره . وكانت مؤلفاته لا تقل تنوعاً عن البلاد التى طاف بها — ألف فى العلوم الرياضية ، والفلكية ، وفى الفلسفة ، والدين ؛ وكانت قصائده تختلف من الحب إلى الصداقة ، ومن مناجاة الله إلى مناجاة الطبيعة ، والفصول ، ومن الحديث عن الشطرنج إلى التغنى بجمال النجوم . وقد صاغ فى صور شعرية أفكاراً لم يكن يخلو منها مكان ما فى عصر الإيمان ، واستبق نيومن Newman بهذه الترنيمة العبرية :

يا إله الأرض والسماء ، منك الروح والجسد !
لقد وهبت الإنسان بعظيم حكمتك ما فى الإنسان من ضياء قدسى . . .
إن أيامى بين يديك ، وأنت تعرف الخير لى
وتهبنى بقوّتك خير عون لى حيث أخشى الوقوف
وسترك يحجب عن العيون آثامى ورحمتك درعى الواقى
ولست تريد جزاء على نعمك وأفضالك(١٠)

وخير ما يشتهر به عند معاصريه هو تعليقه على كل كتاب من كتب العهد

القديم . وقد دافع عن صدق الكتب العبرية المقدسة ، وأنها موحى بها من عند الله ، ولكنه فسر العبارات الممجدة للخالق تفسيراً مجازياً . وكان أول من قال أن سفر إشعيا لم يكتبه نبي واحد بل كتبه اثنان من الأنبياء ؛ ويعدّه اسپنوزا واضع أساس النقد العقلى للكتاب المقدس[١١] .

وكان أعظم شعراء عصره على بكرة أبيهم يهودا هليڤى ( ١٠٨٦ — ١١٤٧ ) . وقد ولد فى طليطلة بعد عام من استيلاء الفنسو السادس ملك قشتالة عليها . فنشأ فيها آمناً فى كنف أعظم الملوك المسيحيين استنارة وتسامحاً فى أيامه . وأعجب ابن عزرا بإحدى قصائده الأولى فدعاه إلى الإقامة معه فى غرناطة ، حيث استضافه موسى وإسحق ابنى عزرا فى منزلها . وأخذ شعره ينتشر ونكاته تذيع فى جميع الأوساط اليهودية فى أسپانيا . وكان ينعكس على شعره مزاجه المرح ، وشبابه الموفق السعيد ؛ وأخذ يتغنى بالحب ، بكل ما عرف من الشعراء الجوالين المسلمين أو البروڤنساليين ، وبكل ما فى نشيد الأنشاد من قوة ورنين : وقد حوت « حديقة بهجته » مقطوعة من الشعر الملتهب حماسة تعد أمرح الفقرات فى هذه الطرفة الغزلية الرائعة :

ادن منها أيها الحبيب ، لِمَ تتوانى عن أن تطعم بين حدائقها ؟
انثن إلى مخدع الحب لتقطف سوسنها .
إن تفاحتى صدرها المحجوبتين ليفوح شذا عطرهما ،
وهى تخبئ لك فى قلائدها ثماراً شهية تتلألأ كالنور . . . .
ولولا قناعها ، لاستحت منها نجوم السماء[١٢]

وترك هليڤى ضيافة ابنى عزرا وسخاءهما وذهب إلى أليسانة وواصل الدرس عدة سنين فى المجمع العلمى اليهودى بهذه المدينة ؛ فدرس الطب ، وأصبح من الأطباء غير النابهين ؛ ثم أسس معهداً للغة العبرية فى طليطلة وأخذ يحاضر فيه عن الكتاب المقدس . ثم تزوج وأنجب أربعة أبناء . فلما تقدمت به السن طغى

شعوره بما حل باليهود من نوائب على ما كان يرفل فيه من نعيم ، فأخذ يتغنى بشعبه ، وبأقرانه ، ودينه ؛ وكان يتوق كما يتوق غيره من اليهود لأن يختم حياته فى فلسطين :

أى مدينة الدنيا (أورشليم) يا ذات الجمال والجلال والكبرياء !
ليت لى جناحى نسر أطير بهما إليك حتى أبلل بدمعى ثراك !
إن قلبي فى الشرق ، وإن كنت مقيما فى الغرب[١٣] .

ولم يكن يهود أسپانيا المنعمون فيما يرون فى هذه الأشعار أكثر من ألفاظ مقفاة موزونة ، ولكن هليفى كان مخلصاً فى أقواله . فقد استودع أسرته فى أيد أمينة عام ١١٤١ ، وبدأ رحلة شاقة إلى أورشليم . وأتت الرياح بمالا تشتهى سفينته فحولتها عن طريقها ودفعتها إلى الإسكندرية حيث استقبلته الجالية اليهودية ، ورجته ألا يجازف بالذهاب إلى أورشليم وكانت وقتئذ فى أيدى الصليبيين . وبعد أن أقام فى الإسكندرية وقتا ما غادرها إلى دمياط ومنها إلى صور ، ثم انتقل منها لسبب لا نعلمه إلى دمشق حيث اختفى ذكره من التاريخ . وتقول إحدى الأقاصيص أنه ذهب إلى أورشليم ، فلما وقعت عينه عليها أول ما وقعت خرّ راكعا ، وقبّل الأرض ، فداسته حوافز جواد يركبه أعرابى وقضت على حياته[١٤] . ولكننا لا نعرف هل وصل حقا إلى مدينة أحلامه ؛ وكل الذى نعلمه علم اليقين أنه كتب فى دمشق « أغنية لصهيون » ولعله كتبها فى آخر سنة من حياته ، وكان جوت الشاعر الألمانى يعدها من أعظم القصائد فى أدب العالم كله[١٥] :

ألا ترغبين يا صهيون فى أن تبعثى بتحياتك من صخورك المقدسة
إلى شعبك الأسير الذى يحييك لأنه البقية الباقية من أبنائك ؟ ...

ألا ما أجش صوتى وأنا أندب أحزانك ولكنى حين أبصر حريتك فى

أوهام أحلامى تنساب من صوتى النغمات حلوة شجية كنغمات القيثارة المعلقة على شاطئ نهر بابل . . . ألا ليتنى أستطيع أن أصب روحى حيث صبت روح الله فى أبنائك القديسين فى الأزمان السابقة ! لقد كنت منزل الملوك وعرش الله ، ولست أدرى كيف يحتل العبيد الآن العرش الذى جلس عليه أبناؤك من قبل ؟

* * *

منذا الذى يرشدنى للبحث عن الأماكن التى أطل منها الملائكة بجلالهم على رسلك وأنبيائك فى الأزمان القاصية ؟

ومنذا الذى يهب لى جناحين أطير بهما لأضع حطام قلبى بين خرائبك وأستريح من تجوالى ؟

سأولّى وجهى نحو أرضك وأمسك بحجارتك أعتز بها كما يعتز الناس بالذهب الثمين . . .

إن هواءك يبعث الحياة فى نفسى ، وذرات ترابك هى المسك الشذى ، وأنهارك تفيض بالعسل المصفى

وما أعظم بهجتى إذا استطعت أن أجىء إلى معابدك المخربة عارياً حافى القدمين ! حيث احتفظ بالتابوت ، وحيث سكن الملائكة المكرمون فى المخابئ المظلمة . . .

يا صهيون يا ذات الجمال الذى ليس بعده جمال ، لقد اجتمع فيك الحب والبهاء ، إن أرواح أبنائك تتجه فى حنان نحوك ؛ وكانت أفراحك بهجتها ومسراتها ، وها هى ذى الآن تبكى فى منفاها البعيد أسى وحسرة على خرائبك ، وتتوق لرؤية مرتفعاتك المقدسة ، وتسجد فى صلواتها خاشعة نحو أبوابك ، إن

الرب ليحب أن يختارك لتكونى مسكنه الأبدى ، وطوبى لمن اختاره الرب وأنعم عليه بالراحة فى داخل أبهائك :

وما أسعد من يرقبك وهو يقترب منك حتى يرى أضواءك المجيدة تنتشر ، ومن يطلع عليه فجرك الوضاء كاملا صافياً من سماء المشرق :

وأسعد من هذا وذاك من يشهد بعينيه المتهللتين نعيم أبنائك المحررين ، ويرى شبابك يتجدد كعهدنا به فى قديم الزمان[١٦] .

obeikandl.com

# الفصل الثانى

## مغامرات التلمود

لقد بلغ رخاء يهود العصر الذهبى فى أسپانيا مبلغاً يمنعهم أن يكونوا شديدى التمسك بالدين كما كان شعراؤهم فى سنى الاضمحلال ؛ فقد كانوا يقرضون شعراً مطرباً ، حسياً ، رقيقاً ؛ وينطقون بفلسفة توفق فى ثقة بين الكتاب المقدس والتفكير اليونانى . ولقد ظل اليهود يزدادون رخاء حتى بعد أن طردهم الموحدون المتشددون فى دينهم من بلاد الأندلس الإسلامية إلى أسپانيا المسيحية ؛ وازدهرت المجامع العلمية اليهودية فى ظل التسامح المسيحى فى طليطلة وبرشلونة خلال القرن الثالث عشر . لكن اليهود لم يكن حظهم فى فرنسا وألمانيا كما كان حظ يهود أسپانيا ، فقد كانوا يزدحمون فى أحيائهم الضيقة وهم وجلون ، ويبذلون خير مواهبهم فى دراسة التلمود ؛ ولم يكونوا يهتمون بتبرير عقائدهم للعالم غير المتدين ؛ ولم يشكوا قط فى أصوله ، بل انهمكوا فى دراسة الشريعة .

وأضحى المجمع العلمى الذى أنشأه جرشوم فى مينز من أوسع المدارس نفوذاً فى ذلك العصر ، اجتمع فيه مئات من طلاب العلم واشتركوا مع جرشوم فى نشر نصوص التلمود وتوضيحها بعد أن ظلوا يكدحون فى هذا العمل جيلين من الزمان . وقام بمثل هذا العمل فى فرنسا الحاخام شلومو بن يصحق ( ١٠٤٠ — ١١٠٥ ) ، ويسميه بنو ملته راشى تدليلا له وقد أخذوا هذا الاسم من الحروف الأولى من لقبه واسمه . وقد ولد راشى فى تروى من أعمال شمپانيا ، وتعلم فى المدارس اليهودية فى ورمز ، ومينز ، واسپير ، ثم عاد إلى تروى وأخذ يعول أسرته ببيع الخمور ، ولكنه خص الكتاب المقدس والتلمود بكل ساعة من ساعات فراغه . وقد أنشأ مجمعاً علمياً فى تروى مع أنه لم يكن حاخاما رسمياً ، وظل يعلم فيه أربعين

سنة ، ووضع بالتدريج شروحا للعهد القديم والمشنا ، والجمارا ولم يحاول ، كما حاول بعض العلماء الأسبان ، أن يجد فى النصوص الدينية آراء فلسفية ، بل كل ما فعله أن فسر هذه النصوص تفسيراً اغترفه من بحر عامه الصافى الخضم ، بلغ من تقدير بنى دينه أن طبع هذا التفسير مع التلمود نفسه . وقد أكسبته طهارة حياته مضافة إلى تواضعه احترام شعبه فرفعوه إلى مقام القديسين ، وأخذت الجماعات اليهودية فى جميع أنحاء أوربا يرسلون إليه يستفتونه فى المسائل الدينية والشرعية ، وجعلوا لأجوبته الصفة القانونية . وأحزنته فى شيخوخته مذابح الحملة الصليبية الأولى . وواصل عمله بعد وفاته أحفاده شمويل ، ويعقوب ، وإسحق أبناء مأير ، وكان يعقوب أول « التوسافيت » ، وظل علماء التلمود الفرنسيون والألمان خمسة أجيال من بعد وفاته يراجعون ويعدلون شروحه بما يضيفون إليها من توسافوت أو « إضافات » .

وما كاد التلمود يتم حتى أصدر چستنيان قراراً بتحريمه (٥٥٣) لأنه «خليط من الصغائر ، والخرافات ، والمظالم ، والإهانات ، والسباب ، والكفر ، والتجديف»(١٧) . ويلوح أن الكنيسة قد نسيت بعدئذ وجود التلمود ؛ ذلك أنه قلما كان يوجد من رجال الكنيسة اللاتينية من يستطيع قراءة اللغة العبرية أو الآرامية اللتين كتب بهما ، وظل اليهود سبعمائة عام كاملة يقرءون ويدرسون مجلداته العزيزة عليهم بكامل حريتهم — يقرءونه بجد يخيل إلينا معه أنهم قد نسوا معه الكتاب المقدس . لكن حدث فى عام ١٢٣٩ أن رفع نقولاس دونين Nicholas Donin ، وهو يهودى اعتنق المسيحية ، إلى البابا جريجورى التاسع معروضاً يتهم فيه التلمود بأنه يحتوى على إهانات فاضحة للمسيح والعذراء ، وتحريض على الغش والخداع فى معاملة المسيحيين . وما من شك فى أن بعض هذه التهم صحيح ، لأن جامعى الكتاب فى جدهم المتواصل قد عظموا التنائيم والأمورائم تعظيما جعلهم يضمون إلى الأجزاء الشعبية من الجمارا وفى أجزاء

متفرقة منها ملاحظات يرد بها الأحبار الغضاب على نقد المسيحيين للدين اليهودى[١٨] . ولكن دونين ، وقد صار أكثر مسيحية من البابا نفسه ، أضاف من عنده عدة تهم أخرى ، لايمكن إثباتها : منها أن التلمود يجيز غش المسيحى ، ويحبذ قتله ، مهما بلغ من صلاحه ؛ وأن أحبار اليهود يجيزون لهم أن ينكثوا عهودهم التى أقسموا على الوفاء بها ، وأن يقتلوا كل مسيحى يدرس الشريعة اليهودية . فما كان من جريجورى إلا أن أمر بأن يرسل إلى الرهبان الدومنيك أو الفرنسيس كل ما يمكن العثور عليه من نسخ التلمود فى فرنسا ، وإنجلترا ، وأسپانيا ، ثم أمر أولئك الرهبان بأن يفحصوا تلك الكتب بدقة وعناية ، فإذا تبينوا أن هذه التهم صحيحة فليحرقوها . ولم نعثر فيما وصل إلينا من المعلومات المسجلة على ما حدث بعد هذا الأمر ، ولكنا نعرف أن لويس التاسع أمر يهود فرنسا بأن يسلموا كل ما لديهم من نسخ التلمود وإلا كان جزاؤهم الإعدام ، ثم استدعى أربعة من أحبارهم إلى باريس ليدافعوا عن الكتاب فى نقاش على أمام الملك ، والملكة بلانش Blanche ، ودونين ، واثنين من الفلاسفة المدرسيين — وليم الأوڤرنى William of Auvergne ، وألبرتس مجنس Albertus Magnus[١٩] . ودام البحث ثلاثة أيام أمر بعدها الملك أن تحرق جميع نسخ التلمود ( ١٢٤٠ ) ، وشفع ولتر كرنوتس Walter Cornutus كبير أساقفة سان Sens لليهود فأمر الملك بإعادة كثير من نسخ التلمود إلى أصحابها ؛ فلما مات كبير الأساقفة بعد ذلك بقليل اعتقد بعض الرهبان أن موته هو حكم الله على لين الملك . واقتنع الملك برأيهم هذا فأمر بمصادرة جميع نسخ التلمود ، فجىء بها إلى باريس محملة على أربع وعشرين عربة وألقيت فى النار ( ١٢٤٢ ) . ثم صدر أمر بابوى فى عام ١٢٤٨ يحرم تملك التلمود فى فرنسا ، وضعفت بعد ذلك دراسة التلمود والآداب العبرية فى جميع أنحاء فرنسا عدا پرڤانس .

وحدث مثل هذا النقاش فى برشلونة عام ١٢٦٣ ؛ ذلك أن ريمند الپنيافورتى

Rayond of Penafort وهو راهب دومنيكي يشرف على محكمة التفتيش في أرغونة وقشتالة أخذ على عاتقه أن ينصر يهود هاتين المقاطعتين . وأراد أن يعد واعظيه لهذا الغرض فنظم دراسات فى اللغة العبرية فى معاهد اللاهوت بأسبانيا المسيحية ، وساعده فى هـــذا يهودى متنصر يدعى پول المسيحى Paul the Christian ؛ وأمدا فيما بينهما ريمند بكثير من المعلومات عن الدينين المسيحى واليهودى فنظم الراهب نقاشاً بين پول والحاخام موسى بن نحمان الجيرونى أمام چيمس الأول ملك أرغونة . وجاء ابن نحمان إلى النقاش على كره منه ، لأنه كان يخشى النصر بقدر ما كان يخشى الهزيمة . ودام الجدل أربعة أيام كان الملك فى أثنائها مبتهجاً ، ويبدو أن الطرفين قد حافظا على آداب المناظرة . وفى عام ١٢٦٤ أمرت لجنة دينية بجمع كل ما فى أرغونة من نسخ التلمود ، ومحت كل ما فيها من فقرات تطعن فى الدين المسيحى ثم ردت الكتب إلى أصحابها(٢٠) ؛ وتحدث ابن نحمان عن الدين المسيحى فى تقريره الذى كتبه للمعابد اليهودية فى أرغونة يصف فيه المناظرة بعبارات خيل إلى ريمند أن فيها طعناً شديداً على هذا الدين(٢١) ؛ فاحتج الراهب لدى الملك على هذا العمل ، ولكن چيمس لم يحرك ساكناً إلا عام ١٢٦٦ حين خضع لإلحاح البابا فنفى ابن نحمان من أسبانيا . وتوفى ذلك الحبر فى فلسطين بعد عام من نفيه .

# الفصل الثالث

## العلوم عند اليهود

تكاد العلوم الطبيعية والفلسفة عند اليهود أن تنحصر كلها فى بلاد الإسلام ؛ ذلك أن المقيمين فى البلاد المسيحية فى العصور الوسطى كانوا بمعزل عن جيرانهم معرضين للاحتقار وإن كانوا متأثرين بأولئك الجيران ، ولهذا لجأوا إلى التصوف والخرافات وأخذوا يمنون أنفسهم بمجىء مسيح ينقذهم مما هم فيه . وتلك كلها ظروف هى أسوأ ظروف يمكن أن ينشأ فيها العلم . غير أن الدين اليهودى كان يشجع على دراسة الفلك ، لأن تحديد أيام الأعياد تحديداً دقيقاً إنما يعتمد على هذه الدراسة . وبفضل هذه الدراسة استبدل علماء الهيئة اليهود فى بابل فى القرن السادس التقديرات الفلكية بالأرصاد المباشرة للقبة السماوية . وقد حسبوا السنة على أساس الحركة الظاهرية للشمس ، والشهور على أوجه القمر ؛ وسموا الشهور بأسماء بابلية ، وجعلوا بعض الشهور « كاملة » عدة كل منها ثلاثون يوماً ، وبعضها « ناقصة » عدة كل منها تسعة وعشرون ، ثم وفقوا بين التقويمين القمرى والشمسى بإضافة شهر ثالث عشر إلى كل سنة ثالثة ، وسادسة ، وثامنة ، وحادية عشرة ، ورابعة عشرة ، وسابعة عشرة ، وتاسعة عشرة فى كل دورة مؤلفة من تسعة عشر عاماً . وكان يهود فى الشرق يؤرخون الحوادث على أساس التقويم السلوقى الذى يبدأ فى عام ٣١٢ ق . م . أما فى أوربا فقد اتخذوا فى القرن التاسع « التاريخ اليهودى » الحالى المعروف باسم « سنة العالم Anno mundi والذى يبدأ بتاريخ خلق الدنيا كما يظنون فى عام ٣٧٦١ ق . م . وبهذا كله أصبح التقويم اليهودى لا يقل سخفاً وقدسية عن تقويمنا نحن(*) .

(*) يريد التقويم المسيحى . (المترجم)

وكان من أوائل علماء الهيئة اليهود فى بلاد الإسلام العالم ما شاء الله ( المتوفى حوالى عام ٨١٥ ) . وقد ترجم چيرار القريمونى Gerard of Cremona كتابه فى الفلك من العربية إلى اللاتينية واستقبل أحسن استقبال العالم المسيحى : ورسالته فى الأثمان هى أقدم مؤلف علمى موجود الآن باللغة العربية : وكانت أعظم رسالة فى العلوم الرياضية فى ذلك العصر(٢٢) هى رسالة أبراهام بن حيا البرشلونى ( ١٠٦٥ — ١١٣٦ ) فى الجبر ، والهندسة ، وحساب المثلثات وهى المعروفة باسم هيورها مشيحه . وقد ألف أيضاً موسوعة مفقودة فى علوم الرياضة ، والهيئة ، والبصريات ، والموسيقى ، كما ألف فى التقويم أقدم رسالة باللغة العبرية باقية إلى الآن . ولم يجد أبراهام ابن عزرا ، فى الجيل التالى ، تعارضاً بين كتابة الشعر ، والتبحر فى التحليل التركيبى . وكان أبراهام هذا وذاك أول من كتب من اليهود رسائل علمية باللغة العبرية لا العربية . وبفضل هذه الكتب ، وفيض من الكتب الأخرى التى ترجمت من العربية إلى العبرية غزت العلوم والفلسفة الإسلامية المجتمعات اليهودية فى أوربا ووسعت نطاق حياتها الذهنيـــة إلى ما وراء المعارف الدينية الخالصة .

وأفاد يهود ذلك العهد إلى حد ما من علوم المسلمين الطبيعية ، وإن كانوا قد عادوا أيضاً إلى تقاليدهم القديمة الخاصة بفن العلاج ، فكتبوا عدة رسائل قيمة فى الطب ، وأصبحوا هم أعظم الأطباء إجلالا فى أوربا المسيحية . ولقد ذاعت شهرة إسحق إسرائيلى ( ٨٥٥ — ٩٥٥ ؟ ) فى طب العيون بمصر ذيوعاً عين بسببه الطبيب الخاص للأغالبة فى القيروان . وكانت مؤلفاته الطبية ، بعد أن ترجمت من العربية إلى العبرية واللاتينية ، تعد أهم المراجع الطبية فى أوربا بأجمعها ؛ وكانت تستعمل كتباً للدراسة فى سالرنو . وباريس ، ونقل عنها بيرتن Burton ، بعد حياة دامت سبعمائة عام ، فيما كتبه عن **تشريح السوداء** ( ١٦٢١ ) . وتصف الروايات المتواترة إسحق بأنه لم يكن يأبه بالمال ، وبأنه عازب عنيد فى

عزوبته ، وبأنه عاش مائة عام كاملة . وأكبر الظن أنه كان من معاصريه. آساف ها يهودى ، وهو المؤلف الخامل الذكر لمخطوط كشف منذ وقت قريب ، ويعد أقدم مؤلف طبي باللغة العبرية باق إلى الآن من الزمن القديم ؛ ويشتهر هذا الكتاب بما جاء فيه من أن الدم يجرى من الشرايين إلى الأوردة ؛ ولو أنه طافت بعقله وظيفة القلب لاستبق بذلك هارفى Harvey [٢٣] إلى كشف الدورة الدموية بأكملها :

وسيطر على فن الطب فى مصر بعد قدوم ابن ميمون إليها (١١٦٥). الأطباء اليهود والمؤلفات اليهودية : فكتب أبو الفداء عن علماء القاهرة أهم رسالة فى الرمد فى القرن الثانى عشر ، وألف الكوهين العطار (١٢٧٥ ؟) كتاباً فى الأقراباذين لا يزال يستعمل حتى الآن فى العالم الإسلامى : وكان الأطباء اليهود فى جنوبى إيطاليا وفى صقلية إحدى المسالك التى انتقل بها الطب العربى إلى سالرنو . ذلك أن شباتاى بن أبراهام (٩١٣ — ٩٧٠) المعروف باسم ونولو والمولود أترانتو وقع أسيراً فى يد المسلمين ، فدرس الطب العربى فى پالرم ، ثم عاد ليمارس مهنته فى إيطاليا . ودرس بنقنوتس جراسس ، أحد يهود أورشليم ، فى سالرنو ، وأخذ يعلم فيها وفى منپلييه وكتب رسالة فى طب العيون (١٢٥٠ ؟) كان العالم الإسلامى والعالم المسيحى على السواء يريانها أهم رسالة فى أمراض العين . وقد اختيرت هذه الرسالة بعد ٢٢٤ عاما من نشرها أول كتاب يطبع فى موضوعها .

وكانت مدارس الأحبار اليهود وبخاصة فى جنوبى فرنسا تدرس منهاجا فى الطب ، وكان من بين الأغراض التى تبتغيها من هذه الدراسة أن تمكن رجال الدين من كسب المال من غير طريق الدين . وقد ساعد الأطباء اليهود الذين تدربوا فى منپلييه على إقامة مدرسة منپلييه الطبية الشهيرة ؛ ولما عين يهودى مديرا لتلك الكلية فى عام ١٣٠٠ جر ذلك على الشعب اليهودى حقد الأطباء فى جامعة

باريس ، واضطرت جامعة منبلييه أن تغلق أبوابها فى وجه اليهود ( ١٣٠١ ) ونفى الأطباء العبرانيون فيمن نفى من اليهود من فرنسا فى عام ١٣٠٦ . غير أن الطب المسيحى كان فى ذلك الوقت قد حدث به انقلاب عظيم بتأثير الأطباء اليهود والمسلمين وما ضربوه لغيرهم من مثل طيبة . ذلك أن الأطباء الساميين كانوا قد نبذوا من زمن بعيد النظرية التى تقول إن المرض ينشأ من حلول الشياطين بالجسم ، وكان نجاح تشخيصهم للمرض تشخيصا قائما على العقل وعلاجهم إياه قد أضعف إيمان الناس بقوة مخلفات الأولياء والصالحين وغيرها من وسائل العلاج المبنية على خوارق الطبيعة .

وكان من أصعب الأشياء على الرهبان والقساوسة الذين تضم أديرتهم وكنائسهم تلك المخلفات والتى تجتذب إليها الحجاج أن يرضوا بهذا الانقلاب ، فحرمت الكنيسة استقبال الأطباء اليهود فى داخل بيوت المسيحيين ، فقد كانت ترتاب فى أن طب هؤلاء الناس أقوى من عقيدتهم ، وكانت تخشى تأثيرهم فى العقول المريضة . وفى عام ١٢٤٦ حرم مجلس بزيير على المسيحيين استخدام أطباء يهود ؛ وفى عام ١٢٦٧ حرم مجلس ڤينا على الأطباء اليهود أن يعالجوا مسيحيين ؛ غير أن هذه الأوامر وأمثالها لم تمنع بعض كبار المسيحيين من الانتفاع بمهارة اليهود ؛ مثال ذلك أن البابا بنيفاس Boniface الثامن حين مرض بعينيه استدعى لعلاجه إسحق بن مردخاى (٢٤) ؛ وكان ريمند للى Raymond Lullys يشكو من أن بكل دير طبيبا يهوديا ، وهال مبعوث بابوى أن يجد أن هذه هى الحال أيضا فى كثير من أديرة النساء ؛ وكذلك ظل ملوك أسبانيا المسيحيون يستمتعون بعناية الأطباء اليهود حتى أيام فرديناند وإزبلا ؛ وكتب ششت بنفنيست Sheshet Benveniste البرشلونى طبيب جيمس الأول ملك أرغونة ( ١٢٣١ — ١٢٧٦ ) أهم رسالة فى أمراض النساء فى زمانه ؛ ولم يفقد اليهود زعامتهم الطبية فى البلاد المسيحية إلا بعد أن استخدمت الجامعات المسيحية فى القرن الثالث عشر الأساليب الطبية القائمة على العقل .

ولم يفد علم الجغرافية إلا قليلا من الشعب اليهودى ، وكان من حقه أن يفيد منه لسعة انتشاره وكثرة تنقله . بيد أن اثنين من اليهود كانا أعظم الرحالة فى القرن الثانى عشر . وهذان هما پتاحيا الراتسبونى Petschya of Ratisbon وبنيمين التطيلى ، وقد كتبا قصصاً عبرية قيمة عن رحلاتهما فى أوربا والشرق الأدنى . فقد غادر بنيمين سرقسطة فى عام ١١٦٠ ، وطاف على مهل ببرشلونة ، ومرسيلية ، وچنوا ، وپيزا ، ورومة ، وسالرنو ، وبرنديزى ، وأترنتو ، وكورفو ، والقسطنطينية ، والجزائر الإيجية ، وأنطاكية ، وكل مدينة هامة فى فلسطين ، وبعلبك ، ودمشق ، وبغداد ، وبلاد الفرس . ثم عاد بطريق البحر مجتازاً المحيط الهندى ، والبحر الأحمر إلى مصر ، وصقلية ، وإيطاليا ومنها براً إلى أسپانيا . ووصل إلى موطنه فى عام ١١٧٣ حيث مات بعد قليل . وكان أكثر ما يهتم به هو الجماعات اليهودية ولكنه وصف المظاهر الجغرافية لكل بلد مر به والخصائص الجنسية لسكانه وصفاً يمتاز بكثير من الدقة والموضوعية . وقصته أقل طرافة ومتعة من قصص ماركو پولو التى كتبها بعد مائة عام من ذلك الوقت ، ولكنها فى أغلب الظن أقرب منها إلى الحقيقة . وقد ترجمت هذه الرحلة إلى جميع اللغات الأوربية تقريباً ، ولاتزال إلى يومنا هذا من الكتب المحببة إلى اليهود[٢٥].

# الفصل الرابع

## نشأة الفلسفة اليهودية

حياة العقل مزيج من قوتين أولاهما ضرورة الإيمان ليستطيع الإنسان الحياة . والأخرى ضرورة الاستدلال ليستطيع التقدم . وتكون إرادة الإيمان هى المسيطرة على العقل فى عهود الفقر والفوضى لأن الشجاعة فى تلك العصور هى كل ما يحتاجه الناس ؛ أما فى عهود الثراء فإن القوى الذهنية تبرز إلى الأمام لتفرض على الناس الرقى والتقدم ؛ وعلى هذا فإن الحضارة فى انتقالها من الفقر إلى الثراء تنزع إلى خلق النزاع بين العقل والإيمان ، « والصراع بين العلم والدين » . وفى هذا الصراع تعمل الفلسفة عادة على التوفيق بين الاضداد وإيجاد سلام وسط لأن وظيفتها هى أن ترى الحياة فى كليتها ؛ ونتيجة ذلك أن يحتقرها العلم ويرتاب فيها الدين . وفى عصر الإيمان حين تجعل الصعاب الحياة شاقة لا تحتمل بغير أمل ، تميل الفلسفة إلى الدين ، وتستخدم العقل فى الدفاع عن الإيمان ، وتصبح ديناً متنكراً . وإذا نظرنا إلى الأديان الثلاثة التى اقتسمت فيما بينها حضارة البيض فى العصور الوسطى رأينا ذلك القول أقل انطباقاً على المسلمين أكثر الناس ثراء ، ورأيناه أكثر انطباقا على المسيحيين وهم أقل من المسلمين ثراء ، وأشد ما يكون انطباقاً على اليهود أقل أصحاب الأديان الثلاثة ثراء . وأكثر ما ابتعدت الفلسفة اليهودية عن الدين عند اليهود الأثرياء فى بلاد الأندلس الإسلامية .

وللفلسفة الإسلامية فى العصور الوسطى مصدران هما الدين العبرانى ، والتفكير الإسلامى . وكانت كثرة المفكرين اليهود ترى أن الدين والفلسفة متشابهان فى محتوياتهما ونتيجتهما ، وأن كل مايختلفان فيه هو الوسيلة والصورة : فالذى يعلمه الدين بوصفه عقيدة موحى بها من عند الله تعلمه الفلسفة على أنه حقيقة يثبتها

العقل ؛ وقد قام معظم المفكرين اليهود من سعديا إلى ابن ميمون بهذه المحاولة فى بيئة إسلامية ، وأخذوا معلوماتهم عن الفلسفة اليونانية من التراجم العربية ، ومن شروح المسلمين ؛ وكتبوا بالعربية لليهود والمسلمين على السواء . وكما أن الأشعرى وجه سلاح العقل ضد المعتزلة ، وأنقذ بذلك العقيدة السنية فى الإسلام ، كذلك فعل سعديا الذى غادر مصر إلى بابل فى نفس العام ( ٩١٥ ) حين تحول الأشعرى من الشك إلى اليقين ، وأنقذ الدين العبرانى بطول جداله ومهارته فيه ، ولم يستخدم سعديا أساليب المتكلمين المسلمين فحسب ، بل استخدم كذلك دقائق مناقشاتهم نفسها(٣٦) .

وكان لانتصار سعديا من الأثر فى الدين اليهودى ببلاد المشرق ، ما كان لانتصار الغزالى فى الإسلام ببلاد الشرق ، فقد عمل هذا الانتصار ، مضافاً إلى الاضطراب السياسى والاضمحلال الاقتصادى ، على خنق روح الفلسفة العبرانية فى الشرق . وكملت القصة فى أفريقية وأسبانيا ، ففى القيروان وجد إسحق إسرائيلى بين مشاغله فى الطب والكتابة متسعاً من الوقت يؤلف فيه كتباً فلسفية ذات تأثير كبير . فقد وضع رسالة فى التعاريف أفاد منها منطق المدرسيين مصطلحات جمة ، وعرّفت رسالته فى العناصر التفكير العبرانى بكتاب أرسطو فى الطبيعة ، وأحل كتابه فى النفس والروح نظرية مأخوذة من الأفلاطونية الحديثة عن الفيض الإلهى التقدمى من الله إلى العالم المادى ، أحل هذه النظرية محل قصة الخلق كما وردت فى سفر التكوين ؛ وكان هذا من مصادر القبّالة اليهودية .

وكان أثر ابن جبيرول فيلسوفاً أكبر من أثره شاعراً . ولقد كان من الطرف التاريخية أن المدرسيين كانوا ينقلون أقواله فى هالة من الإجلال والتقدير ويسمونه أفسبرون ويحسبونه مسلماً أو مسيحياً . ولم يعرف الناس أن ابن جبيرول وأفسبرون رجل واحد إلا حين كشف ذلك سلومون منك Salomon Munk فى عام ١٨٤٦(٣٧) . وكاد ابن جبيرول نفسه أن يهيئ الناس لهذا الخلط إذ حاول

أن يكتب الفلسفة بعبارات بعيدة كل البعد عن الدين اليهودى . فقد أخذ كل مقتبساته فى مجموعة أمثاله المسماه مختار اللآلى من مصادر غير يهودية إذا استثنينا عدداً قليلا من هذه المقتبسات ، وإن كانت القصص الشعبية اليهودية تحتوى على ثروة كبيرة من الحكم القوية التى تعد من جوامع الكلم . ومن هذه اللآلىء لؤلؤة كنفوشية إلى أبعد حد : «كيف يستطيع الإنسان أن يثأر من عدوه ؟ بزيادة صفاته الطيبة »(٢٨) . وتكاد هذه الحكمة أن تكون خلاصة رسالته فى إصلاح الصفات الخلقية التى ألفها ابن جبيرول كما يلوح وهو فى سن الرابعة والعشرين حين تكون الفلسفة موضوعاً غير لائق بالإنسان . وقد اشتق الشاعر الشاب بأساليب فى الاشتقاق اصطناعية جميع الفضائل والرذائل من الحواس الخمس ، فأدى به هذا إلى نتائج غاية فى السخف . ولكن الذى يمتاز به هذا الكتاب هو أنه حاول أن يضع فى عصر الإيمان قانوناً للأخلاق لا يعتمد على العقيدة الدينية(٢٩) .

وبهذه الجرأة عينها امتنع جبيرول عن أن يقتبس فى أهم كتبه كلها وهو كتاب « مقور حايم » من الكتاب المقدس ، أو التلمود ، أو القرآن . وكان هذا البعد عن القومية هو الذى جعل الكتاب بغيضاً لأحبار اليهود ، كما جعله فى ترجمته اللاتينية المسماة « منبع الحياة Fous Vitae » عظيم الأثر فى العالم المسيحى . وقد قبل ابن جبيرول فى هذا الكتاب أصول الأفلاطونية الحديثة التى تسرى فى الفلسفة الإسلامية كلها ، ولكنه فرض على هذه الأصول الفلسفية مبدأ الاختيار الذى يؤكد عمل الإرادة عند الله والإنسان . ويقول ابن جبيرول فى كتابه إن علينا أن نفترض وجود الله بوصفه الهيولى الأول ، والجوهر الأول ، والإرادة الأولى إذا شئنا أن نفهم وجود الحركة فى أى شىء على الإطلاق ؛ ولكننا لا نستطيع قط معرفة صفات الله . ولم يخلق الله الكون فى زمان معين ، بل هو ينساب فى فيض متصل متدرج من ذات الله . وكل شىء فى الكون : ما عدا

الله وحده يتكون من مادة وصورة ، وهما تظهران مجتمعتين على الدوام ، ولا يمكن فصل إحداهما عن الأخرى إلا فى الفكر وحده[٣٠]. وقد رفض أحبار اليهود هذه الآراء الكونية الشبيهة بآراء ابن سينا ، وقالوا إنها هى المادية المقنعة ، ولكن الكسندر الهاليسى Alexander of Hales ، والقديس بوناڤنتور St. Bonaventure ودنز اسكوتس Duns Scotus قبلوا فكرة كونية المادة تحت سيطرة الله وأوّلية الإرادة . وقال وليم الأوڤرونى عن ابن جبيرول إنه « أنبل الفلاسفة أجمعين » ، وظنه مسيحياً صالحاً .

أما يهودا هليڤى فقد رفض كل تفكير فلسفى وقال عنه إنه من عبث العقل ، وكان يخشى كما يخشى الغزالى أن تقوض الفلسفة دعائم الدين ؛ وليس هذا لأنها تشك فى عقائده ، أو لأنها فوق ذلك تتجاهله ، أو أنها تفسر الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً فحسب ، بل لأنها فوق هذا وأكثر منه تستبدل الجدل بالخشوع والإيمان . وقد قاوم هذا الشاعر غزو أفلاطون وأرسطو للدين اليهودى ، وتسرُّب الآراء الإسلامية إلى اليهود ، وهجمات اليهود القرائين المتواصلة على التلمود ، نقول قاوم الشاعر هذا كله بتأليف كتاب فى الفلسفة يعد أمتع كتب العصور الوسطى الفلسفية بأجمعها ، ونعنى به كتاب الخزرى ( ١١٤٠ ؟ ) الذى عرض فيه آراءه فى صورة قصة شبيهة بالمسرحيات تدور حول اعتناق ملك الخزر للدين اليهودى . وكان من حسن حظ هليڤى أن الكتاب قد استخدمت فيه الحروف العبرية وإن كان قد كتب باللغة العربية ، وبذلك لم يقرؤه غير اليهود المتعلمين ؛ ذلك أن القصة تجمع أمام الملك أسقفا ، ومُلاّ ، وكوهنا ؛ ثم تتخلص من الإسلام والمسيحية بعد قليل . فحين يقتبس المسلم والمسيحى من كتاب اليهود المقدس ويقران أنه كلام الله يصرفهما الملك ويستبقى الكوهن اليهودى ، ويصبح معظم الكتاب حديثاً للكوهن يعلم فيه ملكا مطواعا مختتناً أصول الدين اليهودى وشعائره . ويقول التلميذ الملكى لمعلمه : « لم يجد جديد منذ نزل دينكم اللهم

إلا تفاصيل عن الجنة والنار »[٣١] . ويشجع هذا القول الكوهن فيقول إن اللغة العبرية لغة الله ، وإن الله لم يتحدث بنفسه إلا لليهود ، وإن أنبياء اليهود وحدهم هم الملهمون من عند الله ويسخر هليفى من الفلاسفة الذين ينادون بتفوق العقل ويخضعون الله والسموات لقياسهم المنطقى ومقولاتهم ، مع أن العقل البشرى لايعدو أن يكون جزءاً من عالم المخلوقات المعقد وهو جزء هش متناه فى الصغر . . والعاقل ( وليس حتما أن يكون متعلماً ) هو الذى يقر بضعف العقل وعجزه عن إدراك الشئون غير الدنيوية ، ويستمسك بالعقيدة التى جاءه بها الكتاب المقدس ، ويؤمن ويصلى ببساطة الطفل[٣٢] .

ولكن افتتان الناس بالعقل قد بقى على الرغم من هليفى ، وظلت آراء أرسطو تغزو الدين اليهودى . فلقد كان أبراهام بن داود ( ١١١٠ — ١١٨٠ ) مستمسكا بدينه استمساك هليفى ، يدافع عن التلمود ضد اليهود القرائين ويقص بكبرياء وفخار تاريخ الملوك اليهود فى الدولة الثانية ، ولكنه كان يتطلع ، كما تطلع العدد الذى يخطئه الحصر من المسيحيين ، والمسلمين ، واليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، إلى استخدام الفلسفة لإثبات أصول دينه . وقد ولد كما ولد هليفى فى طليطلة ، وكان يكسب عيشه من مهنة الطب . وقد رد على هليفى فى كتابه العربى **كتاب العقيدة الرفيعة** بمثل ما رد به أكويناس فيما بعد على أعداء الفلسفة المسيحيين ، فقال إن الدفاع السلمى عن الدين ضد غير المؤمنين يتطلب المحاجة المنطقية ، ولا يمكن أن يعتمد هذا الدفاع على الإيمان بهذا الدين ، وقد فعل ابن داود ما فعله ابن رشد بعده بزمن قليل ( ١١٢٦ — ١١٩٨ ) ، وما فعله ابن ميمون بعده بجيل من الزمان ( ١١٣٥ — ١٢٠٤ ) ؛ والقديس تومس أكويناس بعده بمائة عام ( ١٢٢٤ — ١٢٧٤ ) ، فبذل كل ما وسعه من جد للتوفيق بين دين آبائه وبين فلسفة أرسطو . ولو أن الفيلسوف اليونانى شهد ذلك لسره أن يتلقى هذه التحية الثلاثية ، أو أن يعرف أن الفلسفة اليهودية لم تعرفه

إلا من ملخصات الفارابى وابن سينا اللذين لم يعرفاه إلا عن طريق الترجمة المشوهة والأفلاطونية الحديثة المزورة . وكان ابن داود أكثر من القديس تومس إخلاصاً لمصدرهما الأرسطاطيلى المشترك فقال كما قال ابن رشد إن النفس الكلية وحدها ، لا النفس الفردية ، هى الخالدة(٣٣) . وهنا كان يحق لهليفى أن يشكو من أن أرسطو قد انتصر على التلمود ، .فلقد بدأت الفلسفة اليهودية ، كما بدأت فلسفة العصور الوسطى بوجه عام ، بالأفلاطونية الحديثة وبالتقوى ، وها هى ذى تبلغ ذروتها بفلسفة أرسطو وبالشك . وسيبدأ ابن ميمون فلسفته من هذا الموقف الأرسطاطيلى الذى وقفه ابن داود ، ويواجه فى شجاعة ومهارة جميع مشكلات العقل فى صراعه مع الدين .

obeikandi.com

# الفصل الخامس

## ابن ميمون ١١٣٥ – ١٢٠٤

ولد أعظم عظماء اليهود فى العصور الوسطى بمدينة قرطبة لأب من أكابر العلماء الممتازين هو الطبيب والقاضى ميمون بن يوسف. وسمى الغلام موسى ، وكان من الأقوال المأثورة بين اليهود قولهم : « لم يظهر رجل كموسى من أيام موسى إلى موسى » . وقد عرف بين الناس باسم موسى بن ميمون أو باسم أقصر من هذا وهو ميمونى . ولما أن أصبح من أحبار اليهود الذائعى الصيت جمعت الحروف الأولى من لقبه واسمه فصارت رمبم ، وعبر العالم المسيحى عن أبوته بتسميته ميمونيدس Maimonides . وتقول إحدى القصص التى يغلب على الظن أنها من الخرافات الذائعة إن الغلام أظهر عدم الميل للدرس ، وإن أباه الذى خاب فيه رجاؤه سماه « ابن الجزار » وبعثه ليعيش مع معلمه السابق الحاخام يوسف ابن مجاشن(٣٤) . ومن هذه البداية الفقيرة برع موسى الثانى فى آداب الدين وآداب الكتاب المقدس ، والطب ، والعلوم الرياضية ؛ والهيئة ، والفلسفة . وكان ثانى اثنين هما أعلم أهل زمانه ؛ ولم يكن يضارعه فى علمه إلا ابن رشد . ومن أغرب الأشياء أن هذين المفكرين البارزين اللذين ولدا فى مدينة واحدة ولم يكن بين مولدهما إلا تسع سنين لم يجتمع أحدهما بالآخر كما يلوح ، ويبدو أن ابن ميمون لم يقرأ لابن رشد إلا حين بلغ هو سن الشيخوخة وبعد أن ألف كتبه(٣٥) .

واستولى البربر على قرطبة فى عام ١١٤٨ وهدموا الكنائس المسيحية والمعابد اليهودية ، وخيروا المسيحيين واليهود بين الإسلام والنفى ؛ فغادر ابن ميمون أسبانيا فى عام ١١٥٩ هو وزوجته وأبناؤه ، وأقاموا فى فاس تسع سنين مدعين أنهم مسلمون(٣٦) ، لأن المسيحيين واليهود لم يكن يسمح لهم بالإقامة هناك أيضاً .

وبرر ابن ميمون تظاهره بالإسلام بين اليهود المهددين بالخطر فى مراكش. بقوله إنهم لم يكن يطلب إليهم أن يؤدوا شعائر هذا الدين أداء عملياً بل كل. ما كان يطلب إليهم أن يتلوا صيغة لا يؤمنون بها ، وإن المسلمين أنفسهم. يعرفون أنهم غير مخلصين فى النطق بها وإنما يفعلون ذلك ليخادعوا جماعة من المتعصبين[٣٧] . لكن كبير أحبار اليهود فى فاس لم يوافقه على هذا القول ، وكان جزاؤه أن قتل فى ١١٦٥ . وخشى ابن ميمون أن يلقى هذا المصير نفسه فسافر إلى فلسطين ، ثم انتقل منها إلى الإسكندرية ( ١١٦٥ ) ومصر القديمة حيث عاش حتى وافته منيته . وسرعان ما عرف المصريون أنه من أعظم أطباء زمانه ، فاختير طبيباً خاصاً لنور الدين على أكبر أبناء صلاح الدين ، وللقاضى الفاضل البيسانى وزير صلاح الدين . واستخدم ابن ميمون نفوذه فى بلاط السلطان لحماية يهود مصر ، ولما فتح صلاح الدين فلسطين أقنعه ابن ميمون بأن يسمح لليهود بالإقامة فيها من جديد[٣٨] . وفى عام ١١٧٧ عين ابن ميمون نجيداً أو زعيما لليهود فى القاهرة ، ثم أفهمه أحد الفقهاء المسلمين ( ١١٨٧ ) بأنه مرتد عن الإسلام وطالب بأن توقع عليه عقوبة القتل التى هى جزاء المرتدين . ولكن الوزير أنقذ ابن ميمون إذ قال إن الرجل الذى أرغم على اعتناق الإسلام لا يمكن أن يعد مسلماً بحق[٣٩] .

وفى سنى العمل المتواصل التى أقامها بالقاهرة ألف معظم كتبه . ومن هذه المؤلفات عشرة كتب فى الطب باللغة العربية نقل فيها آراء أبقراط ، وجالينوس ، وديسقوريدس ، والرازى وابن سينا . وقد اختصر فى كتاب الأمثال الطبية كتاب جالينوس إلى ألف وخمسمائة عبارة قصيرة تشمل كل فرع من فروع الطب ، وترجم هذا الكتاب إلى اللغتين العبرية واللاتينية ، وكثيراً ما كان ينقل عنه فى أوربا ويصدر ما ينقل بتلك العبارة : « قال الحبر موسى » . ووضع مقالة فى تدبير الصحة للملك الأفضل على بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ ومقالة أخرى فى الجماع لسلطان حماة الملك المظفر تقى الدين أبى سعيد عمر

ابن نور الدين تحدث فيها عن الجماع من الوجهة الصحية ، وعن عجز القوة الجماعية ، وعن الانتصاب الدائم ، وعن الأدوية المقوية للباه .

وقد أضاف ابن ميمون إلى هذه الرسائل عدة مقالات كل منها فى موضوع واحد منها مقالة فى السموم والتحرز من الأدوية القتالة(*) ، ومقالة فى الربو(**) ، وأخرى فى البواسير ، ورابعة فى السوداء — ومقالة جامعة فى شرح العقار . وتحتوى هذه الكتب الطبية ، كما تحتوى سائر الكتب ، على أقوال لا تتفق مع عقائد هذا الزمان السريعة التبدل — المعصومة من الخطأ — كقوله إنه إذا كانت الخصية اليمنى أكبر من اليسرى كان المولود الأول ذكراً (٤١) ؛ ولكنها تمتاز برغبة صادقة فى مساعدة المرضى ، ببحثها الذى يمتاز بالتسامح والمجاملة فى الآراء المتعارضة ، وبما يسرى فيها من طابع الحكمة والاعتدال فى النصح ووصف الدواء . ولم يكن ابن ميمون يصف العقاقير إذا ما أغنى عنها تنظيم الغذاء(٤٢) . وقد حذر الناس من كثرة الطعام بقوله إن المعدة يجب ألا تنتفخ كأنها خراج(٤٣) . وكان يظن أن الخمر تفيد الصحة إذا شربت باعتدال(٤٤) ، ونصح بدرس الفلسفة لأنها تدرب على الاتزان العقلى والخلقى وعلى الهدوء وهما الصفتان اللتان تؤديان إلى صحة الجسم وطول العمر(٤٥) .

وبدأ ابن ميمون فى الثالثة والعشرين من عمره شرحاً للمشنا ، وظل يكدح فى هذا العمل عشر سنين بين مشاغله التجارية ، والطبية ، والأسفار الخطرة براً وبحراً . ولما نشر هذا الشرح فى القاهرة عام ١١٥٨ باسم **كتاب السراج** رفع ابن ميمون من فوره — وكان لا يزال شاباً لم يتجاوز الثالثة والثلاثين من عمره — إلى منزلة بين شراح التلمود لاتسمو عليها إلا منزلة راشى ، وذلك

(*) تعرف بالمقالة الفاضلة لأنها موجهة إلى القاضى الفاضل . (المترجم)

(**) وضعت لمريض نبيل . (المترجم)

بفضل ما يمتاز به من الوضوح ، وغزارة المادة ، وصدق الأحكام . وبعد عشرين سنة من ذلك الوقت نشر أعظم كتبه كلها باللغة العبرية الجديدة وسماه متحدياً مستثير آ **مشنا التوراة** ، وقد رتب فيه فى نظام منطقى ، وإيجاز واضح ، كل ما حوته أسفار موسى الخمسة من القوانين وجميع قوانين المشنا والجمارا ما عدا النزر اليسير . ويقول فى مقدمة الكتاب : « لقد سميت هذا الكتاب مشنا التوراة ( تكرار الشريعة ) لأن من يقرأ الشريعة المسطورة ( الأسفار الخمسة ) لأول مرة ، ثم يقرأ هذه المجموعة ، يعرف الشريعة الشفوية جميعها من غير أن يحتاج فى ذلك إلى الرجوع إلى أى كتاب آخر »[٤٦] ، وقد أغفل فيه بعض ماورد فى التلمود من قواعد خاصة بالفأل والطيرة ، والتمائم ، والتنجيم ، فكان بذلك من بين مفكرى العصور الوسطى القلائل الذين لم يؤمنوا بالتنجيم[٤٧] . وقد قسم الأوامر الواردة فى الشريعة والبالغ عددها ٦١٣ أربعة عشر قسما وضع لكل واحد منها عنواناً وخص كل عنوان « بكتاب » . ولم يكتف بشرح كل قانون بل أخذ على نفسه بيان ضرورته المنطقية أو التاريخية . ولم يترجم إلى الإنجليزية من هذه الكتب الأربعة عشر إلا كتاب واحد ، وهو مجلد ضخم نستطيع به أن نتبين ضخامة الكتاب الأصلى كله .

ويتضح من هذا الكتاب ومن كتابه الآخر الذى صدر بعده وهو : **دلالة الحائرين** ، أن ابن ميمون لم يكن من الذين يجهرون بالإلحاد . بل إنه قد حاول جهده لكى يرجع المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس إلى علل طبيعية ، ولكنه كان يدعو إلى الاعتقاد بأن كل لفظ فى أسفار موسى الخمسة موحى به من الله ، وإلى العقيدة الدينية القائلة بأن الشريعة الشفوية قد نقلها موسى إلى كبار رجال إسرائيل[٤٨] . ولعله كان يشعر بأن اليهود لا يستطيعون أن يكون اعتقادهم فى الكتاب المقدس أقل شأناً من اعتقاد المسيحيين والمسلمين فيه ، ولعله هو أيضا كان يرى أن لا قيام للنظام الاجتماعى بغير الاعتقاد فى قدسية أصل القانون

الأخلاق . وكان ابن ميمون وطنيا شديد الحب لوطنه لا يقبل فى عقيدته جدلا « يجب على جميع بنى إسرائيل أن يتبعوا كل ما ورد فى التلمود البابلى ، وعلينا أن نرغم اليهود فى جميع أنحاء الأرض على أن يستمسكوا بالعادات والأساليب التى قررها حكماء التلمود »(٤٩) . وكان أكثر حرية إلى حد ما من معظم المسلمين والمسيحيين فى أيامه ، فكان يعتقد أن غير اليهودى المتمسك بأهداب الفضيلة ، المؤمن بوحدانية الله ، يدخل الجنة ، ولكنه لم يكن يقل قسوة على كفرة اليهود من سفر التثنية أو التركمادا ؛ ويقول إن اليهود الذين ينبذون الشريعة اليهودية يجب أن يقتلوا ؛ و« من رأيى أن جميع أفراد العشيرة اليهودية التى بلغت من القحة والجرأة ما جعلها تخالف أمراً من أوامر الله يجب أن يعدموا »(٥٠) . وقد استبق أكويناس فى الدفاع عن القتل جزاء للإلحاد بحجة « أن القسوة على من يضلون الناس سعياً وراء الزهو والخيلاء إنما هى رحمة بالعالم »(٥١) ، وارتضى دون عناء عقوبة الإعدام التى يفرضها الكتاب المقدس جزاء للسحر ، والقتل ، ومضاجعة المحارم ، وعبادة الأوثان ، والسرقة بالإكراه ، وخطف الأشخاص ، وعصيان الأبناء للآباء ، وخرق حرمة السبت(٥٢) . ولعل أحوال اليهود حين هاجروا من مصر القديمة ، وحاولوا أن يؤسسوا لهم دولة من جماعة معدمة لا وطن لها ، نقول لعل أحوال هؤلاء اليهود كانت تبرر وضع هذه القوانين . ولقد كانت حالة اليهود المزعزعة المضطربة فى أوربا المسيحية أو أفريقية المسلمة كانت تتطلب قانوناً صارماً يخلق فيهم النظام والوحدة ؛ ولكن الآراء المسيحية ، والعادات اليهودية أيضاً فى أغلب الأحيان ، كانت أرحم من القوانين اليهودية فى هذه الأمور ( قبل أيام محكمة التفتيش ) .

وإن فى نصيحة ابن ميمون التى يسديها إلى يهود زمانه لجانباً من هذه الروح أفضل من الجانب الصارم السالف الذكر : « إذا قال الكفرة لبنى إسرائيل :

أسلمونا أحدكم لنقتله وجب عليهم أن يتحملوا جميعاً آلام القتل ولا يسلموا إليهم واحداً من أبناء إسرائيل »[٥٣] .

وأظرف من هذه الصورة صورة هذا العالِم وهو ينحدر إلى الشيخوخة ، فقد أيد فى هذه السن قول أحبار اليهود إن « اللقيط العالم ( بالشريعة ) يسبق الكوهن الأكبر الجاهل » . وهو ينصح العالم بأن يخصص من وقته ثلاث ساعات فى كل يوم لكسب العيش وتسعا لدراسة التوراة . وكان يعتقد أن البيئة أقوى أثراً من الوراثة ، ولذلك أشار على طالب العلم أن يسعى إلى صحبة الصالحين العقلاء من الناس . وينصح طالب العلم بألا يتزوج حتى يكتمل علمه ، ويتخذ له حرفة ، ويشترى له منزلا[٥٥] ، وعندئذ يصح له أن يتزوج أربع نساء ، ولكنه لا يصح له أن يباشرهن إلا مرة واحدة كل شهر .

« نعم إن مباشرة الإنسان لزوجته مسموح به على الدوام ، ولكن من واجب العالم أن يصطنع القداسة فى هذه العلاقة أيضاً ، فعليه ألا يكون على الدوام مع زوجته كما يفعل الديك ، بل يجب عليه أن يؤدى الواجب الزوجى فى ليلة الجمعة . . . ويجب على الزوج والزوجة وقت المضاجعة ألا يكونا فى حالة سكر ، أو فتور ، أو حزن ، وألا تكون الزوجة نائمة فى ذلك الوقت[٥٦] » .

وهكذا ينشأ آخر الأمر الحكيم الذى :

« يتصف بالتواضع الجم ، ولا يكشف رأسه أو جسمه . . . ولا يرفع صوته فوق الحد الواجب إذا تكلم ، حديثه مع الناس جميعاً ظريف . . يتجنب المبالغة والتصنع فى الحديث ، يعدل فى حكمه على الناس ، يؤكد فضائل غيره ، ولا يتحدث عن أحد بسوء[٥٧] » .

ولا يذهب إلى المطاعم إلا عند الضرورة القصوى : « فالرجل الحكيم لا يأكل إلا فى بيته ومن مائدته »[٥٨] . وهو يدرس التوراة فى كل يوم حتى

يموت ، ويحذر ألا يخدعه أحد بأنه المسيح ، ولكنه لن يفقد إيمانه بأن المسيح الحق سيأتى ويعيد إسرائيل إلى صهيون ، ويقود العالم كله إلى الدين الحق ، وإلى الوفرة ، والأخوة ، والسلام : « تفنى جميع الأمم أما اليهود فباقون إلى أبد الدهر »(٥٩) .

وغضب أحبار اليهود من مشنا التوراة ، فقلما كان فى وسع أحد منهم أن يعفو عما يرمى إليه من إحلال كتابه محل التلمود مع ما فى هذا من جرأة ، وقد استاء كثيرون من اليهود مما عزى إلى ابن ميمون من القول بأن من يدرس الشريعة أعلى مقاماً ممن يعمل بها . ولكن الكتاب رغم هذا كله قد جعل صاحبه أعظم اليهود جميعاً فى عصره ، فارتضاه جميع يهود الشرق مستشاراً لهم وبعثوا إليه بمسائلهم ومشاكلهم ، وخيل إلى الناس فى جيل من الزمان أن الجاوئنية قد عادت إلى الوجود . ولكن ابن ميمون لم ينتظر حتى يستمتع بهذا الصيت ، بل شرع من فوره يؤلف كتابه التالى ؛ فبعد أن قنن الشريعة ووضحها لليهود المؤمنين ، وجّه جهوده للعمل على أن يعيد إلى حظيرة الدين اليهودى من أغرتهم الفلسفة أو أغوتهم جماعات الملاحدة من اليهود القرائين فى مصر ، وفلسطين ، وشمالى أفريقية ؛ وأصدر إلى العالم اليهودى بعد عشر سنين من الكد أشهر كتبه كلها وهو : **دلالة الحائرين** ( ١١٩٠ ) ، وقد كتبه باللغة العربية بحروف عبرية ثم ترجم إلى اللغة العبرية وسمى : *مورة نبوخيم* ، ثم ترجم كذلك إلى اللاتينية وأثار عاصفة من أشد العواصف الذهنية فى القرن الثالث عشر .

ويقول فى مقدمة الكتاب إن غرضه الأول من وضعه أن يشرح بعض الألفاظ الواردة فى الكتب المتنبئة ، أى فى العهد القديم . ذلك أن كثيراً من ألفاظ الكتاب المقدس وفقراته ذات معان متعددة : حرفية ، ومجازية ، ورمزية . فنها ما إذا أخذ بمعناه الحرفى كان عقبة كؤوداً فى سبيل المخلصين لدينهم ،

ولكنهم إلى هذا يحترمون العقل أعظم مواهب الإنسان . أولئك ينبغى ألا يخيروا بين الدين بلا عقل أو العقل بلا دين . وإذ كان العقل قد غرسه الله فى الإنسان ، فإنه لا يمكن أن يتعارض مع الوحى الإلهى ، فإذا ما حدث هذا التعارض فسبب هذا — فى رأى ابن ميمون — أننا نأخذ بمعناها الحرفى بعض العبارات الموائمة للعقلية الخيالية التصويرية التى هى من خصائص السذج غير المتعلمين الذين وجه إليهم الكتاب المقدس . ولقد قال أحبارنا إن من المحال أن نصف خلق الإنسان وصفاً كاملاً . . . ولقد وردت قصة هذا الخلق بعبارات مجازية حتى يستطيع فهمها غير المتعلمين كل بقدر ماله من مواهب ، وما عليه إدراكه من ضعف . أما المتعلمون فيفهمونه فهماً مختلفاً عن فهم هؤلاء[٦١] .

ثم ينتقل ابن ميمون من هذه النقطة الأولى إلى البحث فى الذات الإلهية فيستنتج مما فى الكون من شواهد التنظيم المحكم أن عقلا سامياً يسيطر على هذا الكون ، ولكنه يسخر من الرأى القائل إن الأشياء جميعها قد صنعت من أجل الإنسان[٦٢] ؛ فالأشياء لم توجد إلا لأن الله ، وهو مصدرها وحياتها ، موجود : « ولو أمكننا أن نفترض أنه غير موجود لاستتبع هذا أن لا شىء غيره ممكن الوجود » . وإذ كان لابد بهذه الطريقة من وجود الله ، فإن وجوده متلازم مع جوهره . و « الشىء الذى يحتوى فى ذاته على ضرورة وجـوده ، لا يمكن أن يكون لوجوده علة أيا كانت(*) »[٦٣] . وإذ كان الله عاقلا ، فلابد أن يكون غير ذى جسم ؛ وعلى هذا فكل ما ورد فى الكتاب المقدس من عبارات تشير إلى شىء من أعضاء الجسم أو أية صفة من صفاته يجب أن يفسر تفسيراً مجازياً . والحق ، كما يقول ابن ميمون ( ولعله يحذو فى قوله هذا حذو المعتزلة )، أننا لا نستطيع

---

(*) ولقد صاغ ابن سينا هذه القضايا المنطقية ، وأخذها عنه القديس تومس أكويناس ثم كيفها اسپنوزا حتى توائم فكرة الهيولى الذاتى الوجود .

معرفة شيء عن الله إلا أنه موجود ، بل إن الصفات غير الجسمية التى نصفه بها — كالعقل ، والقدرة على كل شيء ، والرحمة ، والحب ، والوحدة ، والإرادة — كلها من نوع الجناس فهى إذا وصف بها الله كان لها معنى غير معناها إذا ما وصف بها الإنسان . ولن نستطيع قط أن نعرف معناها بالضبط إذا وصف بها الله ، وليس فى وسعنا أن نعرفه ، ولا ينبغى لنا أن نعزو إليه خواص أو صفات أو أن نثبت له شيئاً من أى نوع كان . فإذا قيل فى الكتاب المقدس إن الله أو الملائك « كلم » الأنبياء ، فليس لنا أن نتخيل لفظاً أو صوتاً ، والنبوة هى تنمية المخيلة إلى أقصى درجات النماء » ، وهى فيض « الذات الإلهية » عن طريق الحلم أو النشوة الإبصارية ، فالذى يقصه الأنبياء لم يحدث فى الواقع وإنما حدث فى هذه الرؤيا أو الحلم ، وعلينا أن نفسره فى معظم الأحوال تفسيراً مجازياً (٦٤) « ولقد قال بعض حكمائنا فى وضوح إن أيوب لم يكن له قط وجود ، وإنما خلقه الشعراء خلقاً . . . ليكشفوا بهذا عن أهم الحقائق » (٦٥) . وهذا الإلهام التنبوئى فى مقدور أى إنسان إذا نمَّى مواهبه إلى أقصى حدود النماء ، ذلك بأن العقل البشرى إلهام مستمر ، لا يختلف اختلافاً جوهرياً عن بصيرة الأنبياء الواضحة الساطعة .

وبعد فهل خلق الله العالم فى زمان معين ، أو أن الكون ذا المادة والحركة ، كما يظنه أرسطو ، أزلى ؟ يقول ابن ميمون إن هذا ما يحتار فيه العقل ؛ فليس فى وسعنا أن نثبت أزلية العالم أو خلقه ؛ وإذن فلنستمسك بعقيدة آبائنا القائلة بخلقه (٦٦) ، ثم ينتقل من هذا إلى تفسير قصة الخلق الواردة فى سفر التكوين تفسيراً مجازياً رمزيا : فآدم عنده هو الصورة الفعالة أو الروح ، وحواء هى المادة المنفعلة وهى مصدر كل شر ، والأفعى هى الخيال (٦٧) . ولكن الشر ليس له وجود ذاتى موجب ، وإنما هو انتفاء الخير ؛ وترجع معظم مصائبنا إلى ما ترتكبه من أخطاء ؛ ومن الشرور ما ليس شراً إلا من وجهة نظر الإنسان أو وجهة النظر الضيقة ؛ وقد تكشف النظرة الكونية فى كل شر ما هو خير للكل أو ما هو فى

حاجة إليه(٦٨) . وقد أباح الله للإنسان الإرادة الحرة التى تجعل منه إنساناً بحق ؛ وقد يختار الإنسان الشر أحياناً ؛ والله يعلم مقدماً بهذا الاختيار ، ولكن ليس هو الذى يقرره ويحتمه .

وهل الإنسان مخلد ؟ هنا يستخدم ابن ميمون كل ما وهب من قدرة للتعمية على قرائه ، فهو يتجنب هذا السؤال فى كتاب دلالة الحائرين ، ولا يشير إليه إلا بقوله « إن النفس التى تبقى بعد الموت ليست هى النفس التى تعيش فى الإنسان حين يولد »(٦٩) .. وهذه النفس أو العقل « المنفعل » وظيفة من وظائف الجسم تموت بموته ؛ أما الذى يبقى فهو « العقل المكتسب » أو « العقل الفعال » الذى وجد قبل الجسم ، وليس وظيفة من وظائفه على الإطلاق(٧٠) . وهذه النظرة نظرة أرسطو وابن رشد تنكر كما يبدو الخلود الفردى . ولقد أنكر ابن ميمون فى مشنا التوراة فكرة بعث الجسم وسخر من تصوير المسلمين للجنة تصويراً جسمانياً أبيقوريا ، وقال إن تصويرها على هذا النحو فى الإسلام واليهودية ليس إلا تمثيلا لها بما يناسب خيال جمهرة الناس وحاجاتهم(٧١) . وأضاف فى دلالة الحائرين إلى قوله هذا أن : الموجودات غير الجسمية لا يمكن إحصاؤها إلا حين تكون قوى كائنة فى الجسم(٧٢)(*) ؛ وينطوى قوله هذا ، كما يبدو ، على أن الروح غير المادية التى تبقى بعد فناء الجسم ليست بذات إدراك فردى . وقد أثارت هذه الإشارات المتشككة كثيراً من الاحتجاجات لأن بعث الأجسام كان قد أصبح من العقائد الأساسية فى الإسلام واليهودية . ولما كتب دلالة الحائرين بالحروف العربية أثار عقول العلماء فى العالم الإسلامى ؛ فقام عبد اللطيف ، وهو عالم من علماء المسلمين ، يسفهه لأنه « يهدم أركان جميع الأديان بنفس الوسائل التى يخيل إلى الناس أنه يدعمها بها »(٧٣) . وكان صلاح الدين وقتئذ منهمكا فى حرب حياة أو موت من الصليبيين ؛ وكان السلطان من المستمسكين طول حياته بأصول

---

(*) وقد استمد أكويناس من هذا فكرته القائلة إن المادة هى «أصل الانفرادية » !

الدين ، وكان فى هذا الوقت ، بنوع خاص ، أكثر بغضاً للإلحاد منه فى أى وقت آخر لأن الإلحاد فى ذلك الوقت يهدد الروح المعنوية الإسلامية ، والمسلمون منهمكون فى حرب مقدسة ، بأشد الأخطار . ولهذا أمر فى عام ١١٩١ بإعدام السهروردى ، وهو صوفى زنديق ؛ ونشر ابن ميمون فى الشهر نفسه مقالة فى بعث الموتى عبّر فيها مرة أخرى عن تشككه فى عقيدة الخلود الجسمى ولكنه أعلن أنه يؤمن بها على أنها من قواعد الدين فحسب.

وسكنت هذه الزوبعة إلى حين ، وانصرف هو إلى عمله الطبى وإلى كتابة فتاوى دينية أو أخلاقية وصلت إليه من العالم اليهودى . ولما عرض عليه شمويل ابن يهوذا بن تبون ، وكان وقتئذ يترجم **دلالة الحائرين** إلى اللغة العبرية ، أنه يرغب فى زيارته حذره من أن يظن أنه سيحدثه فى أى موضوع علمى ولو مدة ساعة واحدة بالليل أو بالنهار لأن عمله اليومى يجرى على النحو الآتى : « فأنا أقيم فى الفسطاط بينا يقيم السلطان فى القاهرة على بعد مسيرة يومى سبت(*) ( ميل واحد ونصف ميل ) . وواجباتى نحو نائب السلطان جد ثقيلة ؛ فعلى أن أزوره فى كل يوم فى الصباح الباكر ، وإذا ما كان هو ، أو أحد أبنائه ، أو أى فرد فى داخل حريمه ، منحرف المزاج ، فلن أجرؤ على مغادرة القاهرة بل علىّ أن أقيم معظم النهار فى القصر . . . ولا أعود إلى الفسطاط إلى ما بعد الظهر . . . وأكون وقتئذ قد أوشكت أن أموت من الجوع . ولكنى أجد غرفة الاستقبال مزدحمة بالناس ، من رجال الدين ، وموظفى الدولة ، والأصدقاء ، والأعداء . . . فأنزل عن دابتى ، وأغسل يدى ، وأرجو مرضاى أن يصبروا علىّ حتى أتناول بعض المرطبات — وتلك هى الوجبة الوحيدة التى أتناولها كل أربع وعشرين ساعة . ثم أستقبـل مرضاى . . . وأظل كذلك إلى أن يحل الليل ،

---

(*) مسيرة السبت مسافة يبلغ مقدارها ألفى ذراع وهى التى يصرح لليهودى أن يمشيها فى يوم السبت وتعادل المسافة بين النهاية القصوى للمعسكر والتابوت ( الآية الرابعة من الأصحاح الثالث من سفر يشوع ) . ( المترجم ) .

وقد أستمر على ذلك فى بعض الأحيان حتى تمضى من الليل ساعتان أو أكثر من ساعتين ، فأصف لهم الدواء وأنا مستلق على ظهرى من فرط التعب ، حتى إذا جن الليل تكون قواى قد خارت حتى لا أستطيع الكلام . ولهذا لن يستطيع إسرائيلى أن يجتمع بى على انفراد إلا فى يوم السبت . ففى ذلك اليوم يقبل علىّ جميع المصلين ، أو الكثرة الغالبة منهم على أقل تقدير ، بعد صلاة الصبح ، ليتلقوا علىّ بعض العلم . . . ونظل ندرس معاً حتى الظهر ثم نفترق(٧٤) .

وقد أنهك هذا الجهد قواه قبل الأوان . وقد طاب إليه رتشرد الأول ملك إنجلترا أن يكون طبيبه الخاص ، ولكن ابن ميمون لم يستطع تلبية طلبه .

وأدرك وزير صلاح الدين ما حل به من الضعف فسمح له أن يعتزل منصبه ورتب له معاشاً ، ثم توفى عام ١٢٠٤ فى التاسعة والستين من عمره ، ونقلت رفاته إلى فلسطين ولا يزال قبره قائما فى طبرية .

openkandil.com

# الفصل السادس

## الحرب الميمونية

لقد أحسّ العالم الإسلامى والعالم المسيحى بتأثير ابن ميمون كما أحسّ به العالم اليهودى ، فقد أخذ الفلاسفة المسلمون يدرسون **دلالة الحائرين** بإشراف معلمين من اليهود ؛ وكانت تراجم لاتينية للكتاب تدرس فى جامعتى منبلييه وپدوا ، وكثيراً ما كان ألكسندر الهاليسى ووليم الأوفرنى يقتبسان منه فى جامعة باريس . واقتفى ألبرتس ماجنس أثر ابن ميمون فى كثير من المسائل ، وكثيراً ما كان القديس تومس ينظر فى آراء الحبر موسى ليفندها إن لم يكن لغرض آخر . وكان اسپنوزا ينتقد التفسير المجازى للكتاب المقدس الذى يقول به ابن ميمون ويصفه بأنه محاولة غير شريفة للمحافظة على منزلة الكتاب المقدس ، ولعله وهو يفعل هذا كان ينقصه الإدراك السليم للتاريخ ؛ ولكنه مع ذلك كان يصف الحبر العظيم بأنه « أول من جهر بأن الكتاب المقدس يجب أن يواءم بينه وبين العقل »(٧٥) ، وقد أخذ عن ابن ميمون بعض آرائه عن النبوءات والمعجزات وصفات الله(٧٦) .

أما فى الدين اليهودى نفسه فقد كان تأثير ابن ميمون تأثيراً انقلابياً ، وقد واصل أبناؤه وحفدته عمله فكانوا مثله علماء ويهوداً : فقد خلفه ابنه أبراهام ابن موسى فى منصب النجيد وطبيب البلاط عام ١٢٠٥ ؛ وخلفه أيضاً حفيده داود بن أبراهام ، وابن حفيده سليمان بن أبراهام فى زعامة يهود مصر . واحتفظ هؤلاء الثلاثة كلهم بتقاليد ابن ميمون فى الفلسفة ، وأتى على الناس حين من

الدهر أصبح فيه تطبيق آراء أرسطو على الكتاب المقدس واستخدام المجاز والاستعارة فى تفسيره استخداماً يبلغ حد الشعوذة ، ورفْض ما جاء فيه من القصص والقول بأنها غير صحيحة من الوجهة التاريخية ، نقول أصبح هذا كله هو الطراز الحديث . فقيل مثلا إن قصة إبراهيم وسارة ليست إلا خرافة تمثل المادة والصورة ، وإن قواعد الطقوس اليهودية ليس لها إلا غرض رمزى وحقيقة رمزية(٧٧) . وبدا أن صرح الدين اليهودى كله يوشك أن ينهار على رأس أحبار اليهود . وقاوم بعضهم هذه النزعة مقاومة عنيفة : قاومها شمويل الفلسطينى ، وأبراهام بن داود البسكويرى of Posqières ، ومإير بن تادرس هليڤى أبو العافيـــة الطليطلى ، ودون أستروك اللونلى Don Astruc of Lunell ، وسليمان بن أبراهام من يهود منبلييه ، وجناح بن أبراهام چيروندى الأسبانى ، وكثيرون غيرهم . واحتج هؤلاء وأمثالهم على ما سموه « بيع الكتاب المقدس للإغريق » ، وشنوا الغارة على المحاولة التى تهدف إلى إحلال الفلسفة محل التلمود ، ونددوا بتشكك ابن ميمون فى عقيدة الخلود ، ورفضوا فكرته عن الإله غير المعروف وقالوا إنها تجديد مجازى لا يحرك أية نفس نحو التقى والصلاح . وانضم أتباع القبلة الصوفية إلى المهاجمين ودنسوا قبر ابن ميمون(٧٨) .

وفرقت الحرب الميمونية شمل الجماعات اليهودية فى جنوبى فرنسا فى الوقت الذى أخذت فيه المسيحية الصادقة تشن حرباً شعواء لا هوادة فيها على الزندقة الألبيجنسية . وكما أن المسيحية الصادقة قد أخذت تدافع عن نفسها ضد العقلية ، بتحريم كتب أرسطو وابن رشد فى الجامعات ، كذلك خطا الكوهن سليمان ابن أبراهام من يهود منبلييـــه خطوة لم تكن مألوفة من قبل فصب لعنته على كتب ابن ميمون الفلسفية وحرّم من الدين كل اليهود الذين يدرســـون العلوم والآداب النجسة ،

أو يفسرون الكتاب المقدس تفسيراً مجازياً — ولعله قد استبق بعمله هذا هجوم المسيحيين على الجماعات اليهودية بحجة أنها تحمى جماعة العقليين. ورد على هذا أنصار ابن ميمون بزعامة داود قمحى ، ويعقوب بن مخير تبون بأن أقنعوا يهود لونل ، وبزيير ونربونة فى پروڤانس ، ويهود سرقسطة فى أسپانيا بأن يحرموا سليمان وأتباعه من الدين . فلما فعلوا هذا خطا سليمان خطوة أجرأ من الأولى وأكثر منها إثارة إلى الدهشة : ذلك أنه وشى إلى محكمة التفتيش فى منبلييه بكتب ابن ميمون وقال إن فيها آراء خارجة على الدين شديدة الخطر على المسيحية وعلى اليهودية معاً . ووافقه الرهبان على رأيه وأحرقت جميع الكتب الفلسفية التى أمكن الحصول عليها فى احتفال عام فى منبلييه عام ١٢٣٤ وفى باريس عام ١٢٤٢ ثم أحرق التلمود نفسه فى باريس بعد أربعين يوماً .

وأثارت هذه الحوادث حنق أنصار ابن ميمون ودفعتهم إلى أشد أعمال العنف ، فقبضوا على كبار المشايعين لسليمان فى منبلييـــه ، واتهموهم بالوشاية بأبناء دينهم اليهود ، وحكموا عليهم بقطع ألسنتهم ؛ ويلوح أن سليمان نفسه قد قتل(٧٩) . وندم الكوهن جناح على اشتراكه فى إحراق كتب ابن ميمون فقدم إلى منبلييه ، وكفر عن عمله هذا علناً فى كنيسها ، وحج تائباً إلى قبر موسى بن ميمون ؛ ولكن الدون أستروك واصل الحرب باقتراحه أن يصدر الأحبار قراراً يحرم دراسة أى علم من العلوم النجسة . وأيده فى هذا ابن نحمان وآشر بن يحيل ، حتى إذا كان عام ١٣٠٥ أصدر سليمان بن أبراهام بن أردوط ، الزعيم القوى المبجل ليهود برشلونه ، قراراً بحرمان كل يهودى يعلم أى علم من العلوم غير الدينية ما عدا الطب ، أو أية فلسفة غير يهودية ، أو يجرؤ على دراسة شىء منها قبل أن يبلغ الخامسة والعشرين من عمره ؛ وكان رد أحرار منبلييه أن حرموا كل يهودى يمنع

ابنه من دراسة العلوم الطبيعية[٨٠] . ولم يكن لكلا القرارين أثر فى دائرة واسعة ، فقد ظل شبان اليهود فى أماكن متفرقة يدرسون الفلسفة . غير أن ما كان لأردوط وأشر فى أسپانيا من نفوذ ، وازدياد الاضطهاد والخوف فى جميع أنحاء أوربا الخاضعة وقتئذ لمحاكم التفتيش ، دفعا الحاليات اليهودية إلى ما كانت عليه من عزلة عقلية وعنصرية . وضعفت عندهم دراسة العلوم ، وأضحت العلوم الدينية الخالصة هى المسيطرة على المدارس العبرية ، وتوارت الروح اليهودية بعد أن انفصلت عن العقل وانتابها الفزع الدينى والعداء الشامل ، توارت هذه الروح فى الصوفية والتقوى الدينية .

obeikandl.com

# الفصل السابع

## القبـــلة

تكتنف بحار الصوفية جزائر العلم والفلسفة أينما كانت ؛ ذلك أن العلم يضيق الآمال ، ولا يستطيع أن يتحمل عبأه راضين إلا من أسعدهم الحظ . وقد بسط يهود العصور الوسطى على الحقيقة ، كما بسط عليها المسلمون والمسيحيون ، ستاراً من آلاف الخرافات ، وصوروا التاريخ تصويراً مسرحياً بما أدخلوه فيه من المعجزات ومن البشائر والنذر ، وملأوا الهواء بالملائكة والشياطين ، ومارسوا فنون السحر وتلاوة الرقى والتمائم ، وأخافوا أنفسهم وأبناءهم بالحديث عن الساحرات والأغوال ، وأضاءوا ظلمة النوم وغموضه بما وضعوه من تفسير للأحلام ، وتبينوا فى الكتابات القديمة أسراراً خفية باطنية .

والتصوف اليهودى قديم قدم اليهود أنفسهم ، تأثر بالأثنينية الزرادشتية القائلة بالظلمة والنور ، وبالأفلاطونية الحديثة وباستبدالها الفيض الإلهى بعملية الخلق ، وما تقول به الفيثاغورية الحديثة من أن للأعداد قوى خفية وأسراراً ، وبالثيوصوفية الغنوسطية ( مذهب الاتصال بالله أو الفناء بالذات والبقاء بالله ) السائدة فى سوريا ومصر ، والكتب المسيحية الأولى الدينية المشكوك فى صحتها (الأپوكريفا) ، وبالشعراء والمتصوفة فى الهند ومصر ، وبكنيسة العصور الوسطى المسيحية . لكن مصادرها الأساسية كانت كامنة فى عقلية اليهود أنفسهم وتقاليدهم . ولقد انتشرت بين اليهود قبل مولد المسيح نفسه ، شروح سرية لقصة الخلق الواردة فى سِفر التكوين وفى الأصحاحين الأول والعاشر من سِفر حزقيال ؛ وقد حرّمت المشنا شرح هذه الخفايا إلا لعالم منفرد موثوق به . وكان الخيال حرًّا طليقاً يتصور ما كان قبل خلق آدم ، وما سوف يكون بعد فناء

العالم . وكانت نظرية فيلون القائلة بأن الحكمة الإلهية هى أداة الله الخالقة للكون مثلا سامياً لهذه الأفكار الفلسفية . وكان للإسينيين كتابات سرية ، يحرصون على كتمانها عن سواهم ، وكانت الكتب العبرانية غير المعترف بصحتها ككتاب الأعياد تنشر بين الناس أقوالا خفية عن خلق العالم ؛ وجعلت أسماء يهوه التى لا يصح النطق بها ذات قوى خفية ، وكانت حروفه الأربعة — التتراجرام — تهمس فى الآذان على أن لها معنى خفيا ، وتأثيراً معجزاً ، لا تنقل إلا العقلاء ذوى الأفهام الناضجة . وكان عقيبا يقول إن أداة الله فى خلق العالم هى التوراة أو أسفار موسى الخمسة ، وإن لكل كلمة ولكل حرف من هذه الأسفار المقدسة معنى خفيا وقوة خفية . وكان بعض الجأونيم البابليين يعزون إلى الحروف العبرية وإلى أسماء الملائكة أمثال هذه القوى الخفية ، فمن عرف هذه الأسماء استطاع أن يسيطر على جميع قوى الطبيعة . وكان العلماء يعبثون بضروب السحر الأسود والأبيض — أى القوى العجيبة التى يحصل عليها بعض الناس عن طريق اتصال الروح بالملائكة أو الشياطين . وكان لا ستحضار الأرواح ومعرفة الحظ بفتح الكتاب المقدس ، والتعاويذ ، والتمائم ، والرقى ، ومعرفة الغيب ، والقرعة ، كان لهذه كلها شأنها فى الحياة المسيحية . وقد شملت كتب اليهود جميع عجائب التنجيم ؛ فكانت النجوم فى هذه الكتب حروفاً هجائية وكتابات فى السماء خفية لا يستطيع قراءتها إلا المطلعون على أسرارها (٨١) .

وظهر فى وقت ما فى القرن الأول بعد الميلاد كتاب من هذه الكتب ذات الأسرار الخفية فى بابل يعرف باسم سِفر يصيرا — أى كتاب الخلق . وكان الأتقياء المتصوفة من اليهود ومنهم يهودا هليفى يقولون إن واضعه هو إبراهيم أو الله نفسه . ومما جاء فيه أن عملية الخلق قد تمت بوساطة عشرة سفروتات Sefiroth — أعداد أو أصول هى : روح الله ، وفيوض ثلاثة منها : الهواء ، والماء ، والنار ،

وثلاثة أبعاد مكانية إلى اليسار ، وثلاثة أبعاد إلى اليمين . وهذه الأصول هى التى حددت محتويات العالم ، كما حددت الحروف الهجائية العبرية الثلاثة والعشرون الصور والأشكال التى يستطيع بها العقل البشرى فهم عملية الخلق . وتوالت على الكتاب شروح العلماء من أيام سعديا إلى القرن التاسع عشر .

ونقل أحد أحبار اليهود البابليين حوالى عام ٨٤٠ هذه العقائد الخفية إلى إيطاليا ، ثم انتقلت منها إلى ألمانيا ، وپروڤانس ، وأسپانيا . وأكبر الظن أن ابن جبيرول قد تأثر بها فى نظريته القائلة بوجود كائنات وسطى بين الله والعالم . واتخذ أبراهام بن داود « التقاليد السرية » وسيلة لإبعاد اليهود عن نزعة ابن ميمون العقلية . وأكبر الظن أن ابنه إسحق الضرير وتلميذه عزرائيل هما مؤلفا سفر هباهير أو كتاب الضوء ( ١١٩٠ ؟ ) ، وهو شروح صوفية للأصحاح الأول من سِفر التكوين . وقد استبدلا فى هذا الكتاب فكرة خلق العالم عن طريق الفيض الربانى الواردة فى سفر يصيرا بفكرة الضوء ، والحكمة ، والعقل . وعرض هذا التثليث للعقل الإلهى بوصفه ثالوثاً يهوديا[٨٣] . وعرض العزر من يهود ورمز (١١٧٦ — ١٢٣٨) ، وأبراهام بن شمويل أبو العافية ( ١٢٤٠ — ١٢٩١ ) هذه العقيدة السرية على أنها دراسة أعمق وأكثر نفعاً من التلمود . وقد استخدما فى وصف الصلة بين الله والنفس البشرية لغة الحب الشهوانى والزواج التى كان يستخدمها المتصوفة المسلمون والألمان .

وقبل أن يستهل القرن الثالث عشر كانت كلمة قبلة قد عم استعمالها لوصف العقيدة السرية فى جميع مظاهرها ونتائجها . وفى عام ١٢٩٥ نشر موسى بن شم طوب من علماء ليون الكتاب الثالث من الكتب القبلية الهامة المسمى **سفر زوهر** أو **كتاب المجد** وعزا تأليفه إلى شمعون بن يوحاى أحد علماء القرن الثانى ، فقال إن الملائكة قد ألهمت شمعون والسفروت العشرة أن يكشفوا لقرائه المستترين الأسرار التى كانت من قبل محتفظا بها إلى أيام المسيح المنتظر :

وقد جمعت فى الزوهر كل عناصر القبلة : فكرة الإله الشامل لكل شىء الذى لا يعرف إلا عن طريق الحب ، والحروف الأربعة المكونة لاسم يهوه — التتراجوامتون — ، والأوساط الخالقة ، والفيوض الربانية ، والاستعارات الأفلاطونية الخاصة بالعالم الكبير والعالم الصغير ، وتاريخ ظهور المسيح وكيفية ظهوره ، وأزلية الروح وتنقلها ، والمعانى الصوفية للطقوس الدينية ، والأعداد ، والحروف ، والنقط ، والشرط ، واستعمال الكتابات الجفرية ، والحروف الأولى من العبارات التى إذا جمعت كونت اسماً خاصاً ، وقراءة الكلمات عكساً لا طرداً ، والتفسير الرمزى لنصوص الكتاب المقدس ، والقول بأن حمْل المرأة خطيئة وإن كان فيه تجسيد لسر عملية الخلق . وقد شوه موسى الليونى عمله حين جعل شمعون بن يوحاى يشير إلى خسوف حدث فى رومة عام ١٢٦٤ ويقول بعدة آراء لم تكن ، كما يلوح ، معروفة قبل القرن الثالث عشر ، وقد خدع بذلك كثيرين من الناس ، ولكنه لم يخدع زوجته ؛ وقد اعترفت أن زوجها موسى كان يرى فى شمعون خدعة مالية بارعة(٨٣) . وأدى نجاح هذا الكتاب إلى ظهور عدة كتب أخرى مضللة ، وجازى بعض القبليين المتأخرين موسى بمثل أعماله فنشروا آراءهم هم معزوة إليه .

وكان للقبلة أثر شامل واسع المدى ، وظل الزوهر وقتاً ما كتابا يدرسه اليهود كدراستهم للتلمود ، بل إن بعض القبليين قد هاجموا التلمود ووصفوه بأنه كتاب بال قديم ، مفرط فى التقطيع المنطقى ؛ وتأثر بعض علماء التلمود ، ومنهم ابن نحمان العالم النحرير تأثراً شديداً بالمدرسة القبلية . وانتشر الاعتقاد بصدق القبلة ، وبأنها وحى من عند الله انتشاراً واسعاً بين يهود أوربا(٨٤) . وبقدر هذا الانتشار كان أثرها السيئ فى مؤلفاتهم العلمية والفلسفية ، وانقضى عصر ابن ميمون الذهبى فى سخف الزوهر الوضاء . وتعدى أثر القبلة اليهود إلى المسيحيين فافتتن

بها بعض مفكريهم ؛ فأخذ عنها ريمند للى Raymond Lully ( ١٢٣٥ ؟ — ١٣١٥ ) أسرار الأعداد والحروف فى كتابه Ars Magna وحسب بيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola ( ١٤٦٣ — ١٤٩٤ ) أنه قد وجد فى القبلة أدلة قاطعة على ألوهية المسيح(٨٥) ، واغتذى براسلسس Pracelsus ، وكورنليوس Cornelius ، وأجربا Agrippa ، وربرت فلد Robert Fludd وهنرى مور Henry More وغيرهم من المتصوفة المسيحيين ببحوثها ، وأقر يوهانس روشلين Johonnes Rcuchlin ( ١٤٥٥ — ١٥٢٢ ) بأنه قد سرق من القبلة بحوثه الدينية ، ولعل بعض الآراء القبلية قد سرت إلى يعقوب بوهم Jakob Böhme ( ١٥٧٥ — ١٦٢٤ ) . وإذا كانت نسبة اليهود الذين وجدوا السلوى فى الإلهامات الصوفية إلى مجموعهم أكبر من هذه النسبة عند المسلمين أو المسيحيين ، فما ذلك إلا لأن الدنيا قد كشرت عن نابها لليهود ، وأرغمتهم فى سبيل الحياة إلى أن يخفوا الحقائق وراء ستار من نسيج الخيال والرغبة ، واليائسون السيئو الحظ هم وحدهم الذين لا بد لهم أن يعتقدوا أن الله قد اصطفاهم لنفسه :

# الفصل الثامن

## العتق

لقد وجد يهود العصور الوسطى فى عزلة جماعاتهم ، وفيما تسبغه عليهم شعائرهم وعقائدهم من سلوى ، ملجأ لهم من تمجيد الصوفية ، وزوال خداع عقيدة المسيح المنقذ المنتظر ، ومما كان ينتابهم من الاضطهاد حينا بعد حين ، ومن ملل الحياة الاقتصادية الرتيبة . فكانوا يحتفلون بمظاهر التقى بالأعياد التى تذكرهم بتاريخهم ، وبخطوبهم ، وبمجدهم التليد ، وعدلوا فى صبر وأناة احتفالاتهم التى كانت من قبل تقسم السنة الزراعية لتوائم حياتهم الحضرية . فكان القراءون المتقرضون يحتفلون بالسبت فى البرد والظلمة حتى لا يخالفوا الشريعة بإيقاد النار أو إضاءة السراج ، ولكن معظم اليهود كانوا يستقدمون أصدقاء لهم من المسيحيين أو زائرين ليبقوا لهم النار متقدة والمصابيح مضيئة ، وكان أحبارهم يغضون النظر عن هذه المخالفة ؛ وكانوا يغتنمون كل فرصة لإقامة المآدب يظهرون فيها سخاءهم وأبهتهم : فكانت الأسرة تقيم وليمة يوم ختان ابن لها أو بلوغه سن الرشد ، وفى خطبة ابن أو بنت أو زواجهما ، أو زيارة عالم أو صديق مشهور أو حلول عيد دينى . وأصدر رجال الدين أوامر بتحديد نفقات هذه الحفلات فنهوا من يقيمونها عن أن يدعوا إليها أكثر من عشرين رجلاً ، وعشر نساء ، وخمس بنات ، وجميع أقارب الداعى حتى الطبقة الثالثة . وكانت حفلات الزواج تدوم أحياناً أسبوعاً كاملا ، لا يسمحون أن يقطعها يوم السبت نفسه . وكان العروسان يتوجان بالورد ، والريحان ، وأغصان الزيتون ، وينثر فى طريقهما النقل والقمح ، وتنثر فوقهما حبوب الشعير رمزاً للإخصاب ؛ وكانت الأغانى والنكات تصاحب كل مرحلة من

مراحل هذا الحادث ، وفى أواخر العصور الوسطى كان مهرج ممتهن يستأجر ليتم للحاضرين سرورهم . وكانت نكات هذا المهرج فى بعض الأحيان صادقة إلى حد القسوة ، ولكنه يكاد على الدوام أن يعمل بقول هلل الظريف : « إن كل زوجة جميلة »(٨٦)

وبهذه الطريقة كان الجيل المنقضى يحتفل بانقضائه وحلول جيل آخر مكانه ، ويبتهج بمولد أبناء أبنائه ، ويستكن إلى الشيخوخة المتعبة الرحيمة . ونحن نشاهد وجوه أولئك اليهود الشيوخ فى صور ربمرانت Rembrandt : نشاهد ملامحهم الناطقة بتاريخ الشعب والفرد ، ولحاهم تنفث الحكمة ، وعيونهم قد انطبعت فيها الذكريات الحزينة ، ولكنها قد رققها الحب الحنون : وليس فى صفات المسلمين والمسيحيين الخلقية ما يفوق الحب المتبادل بين الشباب والشيب عند اليهود ، الحب الذى يتغاضى عن جميع الزلات ، وهداية العقول المجربة للعقول غير الناضجة ، والكرامة التى تحمل من عاشوا حياتهم كاملة على أن يرتضوا الموت ويروه النهاية الطبيعية للحياة .

واليهودى إذا مات لا يترك لأبنائه متاع الدنيا فحسب ، بل يترك لهم فوق ذلك نصائحه الروحية : « كن أول من يذهب إلى الكنيس » ، وها هى ذى وصية إلعزر (١٣٣٧) من أهل مينز تقول : « لا تتكلم فى أثناء الصلاة ، وردد الاستجابات ، واعمل الخير بعد الصلاة » .

وها هى ذى آخر وصايا اليهودى :

غسلونى ، ومشطوا شعرى ، ودرموا أظافرى ، كما كنت أفعل فى حياتى ، كى أسير طاهراً إلى مقرى الأبدى كما كنت أسير إلى الكنيس كل سبت . وضعونى فى الثرى على يد أبى اليمنى ، فإذا ضاق المكان قليلا فإنى واثق من أنه يحبنى حبا يجعله يفسح لى مكاناً بجانبه(٨٧) .

فإذا ما لفظ الشخص نفسه الأخير أقفل الابن الأكبر للميت أو أكبر أبنائه

أو أقربائه مقاماً فاه وأغمض عينه ، ثم تغسل جثته وتضمخ بالأدهان العطرة ، وتلف فى قماش التيل النقى النظيف . ويكاد كل يهودى أن يكون عضواً فى جمعية للدفن ، تأخذ الجثة ، وتعنى بها ، وتقوم بآخر الشعائر الدينية ، وتصحبها إلى قبرها . وكان حملة بساط الرحمة يسيرون فى الجنازة حفاة ، وتسير النساء أمام النعش ، ينشدن نشيداً حزيناً ، ويدققن طبلة . وكان ينتظر من كل غريب تمر به الجنازة أن ينضم إليها ويسير فيها إلى المقبرة . وكان تابوت الميت يوضع عادة بالقرب من توابيت الموتى من أقاربه ، حتى لقد كان معنى الدفن عندهم هو « الرقود مع الآباء » و « الاجتماع بالأهل » . ولم يكن المشيعون يستولى عليهم اليأس ، فقد كانوا يقولون إنه وإن مات الأفراد فإن بنى إسرائيل لن يموتوا .

obeikandl.com